

مايا أبو الحيات

# $AB^+$

رواية

دار الآداب ـ بيروت

AB⁺

مايا أبو الحيات / روائيّة

الطبعة الأولى عام 2013

ISBN 978-9953-89-

حقوق الطبع محفوظة





**دار الآداب للنشر والتوزيع**

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

Website: www.daraladab.com

Facebook: Dar Al Adab

# ١

تموت ملكة، قابلة القدس الشرقيّة. أفركها بالنبيذ الرخيص، أفرك كلّ بقعة فيها، ولا أستطيع أن أقفل عينيها نصف المغمضتين، ونظرتها السارحة في شيء ما. ما زالت تريد أن ترى كلّ شيء، وأن تسيطر على أفعال الجميع، ونحن نحاول أن نفعل ما كانت ستفعله لو كانت مكاننا، نحاول ولا نستطيع، فلا أحد مثلها في السيطرة على الأمور. لو أنّها تعلم أنّها ستبقى في الثلّاجة حتى يوم الإثنين لأصيبت بالهلع. كانت ستفعل المستحيل لتجنّب الأمر. لا أحد يفكّر بذلك الآن، فالجميع مشغول بتحضيرات ما بعد الحدث. نحاول أن نتجنّب التفكير في أنّها هي نفسها التي نحاول أن نلبسها الجربان البيضاء والشلحة الستان التي اشترتها خصّيصًا لمثل هذا اليوم.

جسدها الذي تضاءل من فقدان السوائل يصبح ثقيلاً الآن، نرفعها نحن الثلاثة ولا نستطيع. أحاول تجنّب النظر إلى أعضائها، لكن تلك الشعيرات القليلة النابتة في مكان ما تستوقفني. الوجه المصفرّ من تصفّي الدماء في الجهة اليسرى من وجهها، البقع

الحمراء في ساعد يدها، الثديان الباهتان المهدّلان يمينًا وشمالاً: كلّ شيء ميت قبل مدّة طويلة، ويقاوم.

لا تريد أن تموت، لا تريد.

تلك اليونانيّة التي ولّدت نصف رجال القدس ونسائها، ولم تلد شيئًا، تتمدّد أمامي في غرفة جرداء من غرف طابق الموت في مستشفى هداسا، أنا التي تعثّرت بها صدفة لم يخطر لي أنّني سأشارك في فعل الذهاب، وأنّني أنا من سيختار لها فستانها الأخير الذي ربّما لن تحبّه.

أخرج من الغرفة تاركة نينا وأمّ عزيز مع ذلك الجسد بعد إلباسه وتحوّله إلى شبح أبيض. وضعت له نينا من أحمر شفاهها الفوشيّ اللون على طريقة الثمانينيّات فأصبح كعرائس الغيشا. سهيل في الخارج يحاول الاتّصال بأحدهم لترتيب أمور الصلاة والدفن. أحاول مواساته لكنّه لا يبدو كمن يحتاج إلى ذلك، فقد حلّل منذ لحظة إعلان وفاتها من قبل الممرّضة اليهوديّة ذات الملامح الآسيويّة، الأسباب التي أدّت إلى الوفاة، وهي الماء على الرئتين، وقصور عضلة القلب، وتسكير الشرايين. كان متصالحًا مع الأمر دون حاجة إلى تعاطفي.

عرفت ملكة منذ أسبوعين فقط. نقل والدي إلى قسم الجراحة لإجراء عمليّة قلب مفتوح في مستشفى المقاصد، أدخلته في حالة موت سريريّ، نُقل على إثرها إلى مستشفى هداسا، ليظلّ على حاله منذ ذلك الحين. لم يجمعنا المستشفى فقط، بل جمعتنا تلك النظرة المتبادلة لسهيل ابن شقيقة نينا الذي كما قالت لي يبحث عن عروس

منذ خمس سنوات، هو الذي تخطّى عقده الخامس بقليل.

لم أكن أحتاج لأكثر من نظرة واحدة لأعرف أنّني سأشاطر هذا الرجل عمرًا قادمًا، هذا كلّ ما كان يخطر ببالي وأنا أراه يشرب القهوة الأميركيّة، التي لا أطيقها، في ممرّ المستشفى أو يجلس جلسة الاستعداد للرحيل بجانب سرير ملكة.

صرت أزورها كلّ يوم هربًا من رتابة انتظار موت أبي أو استيقاظه، وطمعًا برؤية سهيل الذي يأتي لزيارتها كلّ مساء في الساعة نفسها. صارت زيارتي لها شبه يوميّة: أجلس بجانب نينا التي تلبّي طلبات ملكة كأنّها رجل آلي، وأحاول أن أفهم سرّ هذه المرأة التي تتكلّم كثيرًا وتملك قلب فتاة عشرينيّة تريد من الحياة كلّ شيء.

كلّ من في القسم المخصّص لحالات شبيهاتها من الكبار في السنّ يحبّون ملكة، ويعرّفونها على من يزورنهم، من أبناء وأحفاد، حتى تلك المرأة التي لا تتكلّم إلّا العبريّة، وتضع طاقيّة صوف سميكة على رأسها.

تستمع ملكة إلى قصصهم لتسرد قصصها، فتتفانى في وصف أوجاعها الممتدّة من أنفها، نتيجة التقرّحات التي أصابته من أنبوبي الأوكسجين، وحتى رجليها المنتفختين لتراكم المياه فيهما، ولا تنسى إضافة كلمة «أخ» كبيرة بعد كلّ جملة تقولها، إمّا من حكّة لا ترحمها من الصدفيّة، أو ألم في الظهر نتيجة للغضاريف المتآكلة التي حنت ظهرها فأصبحت بطول ولد صغير.

كلّ من في الغرفة يحفظ التقرير الطبّي لملكة، ويعرف تاريخ

حياتها الكامل منذ عملها قابلة قانونيّة في مستشفى الهوسبيس في بداية الخمسينيّات، حتى دخولها الأسبوعي المنتظم إلى مستشفى هداسا، منذ ثلاث سنوات، لتريح رجليها من المياه المتكدّسة فيهما. الممرّضون والممرّضات يتعاملون معها على أنّها الخبيرة التي عليهم النجاح في اختبارها التقييمي، وهي لا تتوانى عن إعطائهم نصائحها في عالم التمريض بلغة إنكليزيّة ليست سيّئة أبدًا، دون أن تنسى غمز الممرّض الشابّ الوسيم الذي يحمّمها كلّ يومين، وأن تقول له في كلّ مرّة تراه فيها: «أنا زيّ إمّك»، فيضحك ويقبّلها.

رائحة موادّ التنظيف المختلطة برائحة الدواء وبراز العجزة التي تملأ الفوط وجامعات البول، لا تثني أحدًا منّا عن الإتيان في المساء، ولا تمنعني من الهرب من غرفة أبي الميتة إلى غرفة أكثر حياة بقليل؛ فساعات المساء تبدو موحشة دون زوّار، وهذه الغرفة التي تقطنها أربع نساء، واحدة منهنّ لا تستيقظ ولا يزورها أحد، لا يمكن أن تصمت آهاتها إلّا بقصص جديدة تأتي مع الزوّار المتثاقلين.

لا أحد يأتي لزيارة أبي لعدم تمكّنهم من الدخول إلى القدس. كذلك لا يزور أحد الرجل الآخر في الغرفة، الذي لا يتكلّم مع أحد منّا، ويبدو خائفًا من وجودنا معه في الغرفة نفسها. ورغم الاتّصالات التي لا تتوقّف، فإنّ الكلام في تلك الغرفة يقتصر على مناكفاتي أنا ويارا وتمتمات الرجل الآخر أثناء نومه وهو ينادي أحدًا ما بلغة عبريّة لا نفهمها، فيتحوّل الأمر إلى موسيقى خلفيّة لما يدور في ذهن كلّ واحدة منّا. ترحل يارا عند المساء لتعود إلى

أولادها وزوجها الذي لا يتوقّف عن الاتّصال بدافع الغيرة لا الحبّ، وأظلّ أنا معهما: رجلان غريبان تمامًا، رغم أنّ أحدهما هو أبي.

وملكة هذا المساء ذهبت، لم يكن وقت الزيارة قد حان بعد، لم تكن نينا هناك ولا سهيل ولا أنا ولا حتى الممرّض الوسيم. حاولوا إنعاشها طويلاً حتى يأتي أحد ما، يجعل الأمر أقلّ حدّة على روحها التي لا تريد أن تذهب، ربّما تأتي نينا التي ذهبت مع سهيل إلى البيت لتبديل ملابسها، لكنّهما وصلا حين انتهى كلّ شيء. رأياها من النافذة التي تطلّ على الممرّ. أنا كنت هناك أيضًا، كأنّنا تواعدنا على الوصول جميعًا في الوقت ذاته، ورأينا تلك النظرة باتّجاهنا. كانت تنظر لا هي عاتبة ولا هي فرحة ولا هي حزينة. كانت سارحة وصامتة، وكان هذا هو الموت لتلك المرأة التي لا تصمت أبدًا.

يارا تتّصل بهاتفي النقّال لتؤنّبني على التدخّل في حياة هذه العائلة وتركها وحدها بجانب أبي، فهي تريد أن تذهب لتتبضّع من شارع يافا، قبل عودتها إلى البيت، وقد أخبرتني بذلك منذ الصباح. أركض إليها خوفًا من غضبها الذي يتحوّل إلى نقاشات طويلة وغير محتملة.

أبي لا يزال على حاله: كتلة ضخمة من اللحم الفائض عن الحاجة، أنبوبا الأوكسجين يدخلان أنفه يمنعانه من الشخير. تضع يارا ما تبقّى من أحمر الشفاه اللوريال على شفتيها مستعينة بالمرآة الموجودة فوق مغسلة الغرفة. الرجل الآخر يراقب يارا التي لا ترى

أحدًا حولها، تمسك بحقيبتها الغوتشي المزوّرة، وتسرع بالخروج من الغرفة، دون أن تنسى تنبيهي من عدم الاتّصال بها لاستعجالها كما أفعل في العادة. أجلس على الكرسي البلاستيكي بعيدًا عن السريرين ممتنّة لذهاب يارا أخيرًا.

كانت بردًا رغم الحرارة الشديدة التي تبعثها التدفئة المشتعلة على الدوام. كنت قد توقّفت عن النظر نحو أبي منذ فترة، فأصبح جسده الضخم جزءًا من الغرفة، لا يختلف كثيرًا عن السرير والكرسي والنافذة التي تطلّ على مبنى مستشفى التوليد، لكن رأسي ذلك اليوم مال في اتّجاهه. كنت خائفة أن يستيقظ فجأة فيسأل عن يارا، أو يؤنّبني على «البدي» الذي ألبسه.

وجهه مائل إلى السواد، وينزل اللعاب من طرف شفته. التالولة في طرف رأسه زاد حجمها. أغمضت عينيّ كي لا أرى، لكن صورة أخرى ظهرت لي من زمن آخر، يجلس فيها أبي على طاولة المطبخ في بيتنا في المنزّه الخامس في تونس، بكرش أصغر وشيب أقلّ، ويصنع ساندويشات البيض المسلوق بخبز الباغيت الفرنسي، ساندويشات البيض التي ستهرب جميع الطلّاب من حولنا حالما نفتح الكيس، يصنعها ببطء، دون أن ينسى شرحات البندورة والمخلّل التي سترطّب البيض والخبز. ابتسمت رغم أنّني طالما كرهت تلك الساندويشات واعتبرتها عقابًا.

أتحرّك بين المغسلة وطرف السرير وأنا أفكّر في العودة إلى حيث توجد ملكة وسهيل، رغم أنّ هناك موتًا، إلّا أنّني لا أطيق الحياة هنا.

لكنّني فتحت عينيّ على صوت مألوف لم أسمعه منذ مدّة: شخير أعرفه جيّدًا، لكنّه متقطّع وطويل. أبي كان ينتفض كمن ابتلع جسمًا حديديًّا يحاول لفظه. لم يبد لي أنّه أبي تلك اللحظة. كان شيئًا يشبهه، وكنت خائفة من الاقتراب. اقتربت بعد أن استجمعت شجاعتي وبدأت بالصراخ. حاولت أن أمسك بيديه لتثبيته. لكن الجسد سقط عن السرير محدثًا هزّة أيقظت القسم، سقوطه نزع الأنبوبين المعلّقين في فتحتي أنفه. وللحظة فتح عينيه وبدأ بالشخير.

بدا مرتاحًا. جاءت الممرّضة والممرّض وكلّ من في القسم، رفعوه بشرشف السرير الذي سقط مع سقوطه. حاولوا إنعاشه بالتدليك والصعقات الكهربائيّة، لكنّه كان قد شخر شخرته الأخيرة.

تلك الليلة انتقل أبي إلى طابق ملكة، وأصبحت أنا زميلة سهيل في التحضيرات، لكنّني على عكسه كنت عاطفيّة أكثر من اللازم، فأصابني بالهلع مشهد أبي ملفوفًا بشراشف المستشفى يلوّح به ممرّضان من كلّ طرف. وكان البحث عن يارا التي لا يمكن الوصول إلى هاتفها أصعب من كلّ ما يحدث معي، وفكّرت بسيناريوهات توقيفها من قبل الجنود، لأنّ التصريح الذي تملكه يقضي بالوجود داخل المستشفى فقط. وسقطت وأنا أراهم يفحصون ذلك الجسد لتعبئة تقرير الموت بالمعلومات الأخيرة، سقطت منهنهة من بكاء لا أعرف مصدره.

استيقظت في غرفة الطوارئ في المستشفى نفسه: سهيل الذي

كان يقف بجانب يارا قال إنّني وقعت على الأرض، وإنّهم أدخلوني إلى غرفة الطوارئ وأجروا لي كافّة الفحوص، وليس الأمر أكثر من هبوط في الضغط. يارا تطلّ فوق رأسي بمساحيقها الزاحفة عن أماكنها الصحيحة، وأبي في مكان آخر.

كان علينا أن نهتمّ بأمور كثيرة، وأنا لا أزال غير مصدّقة أنّ هذا الرجل الذي هو أبي انتهى من حياتنا إلى الأبد: هل هو حقًّا قابل للموت؟ هل تموت الأشياء الضخمة بهذه الطريقة؟

جلسنا في الطابق الأرضي من المستشفى لا نتكلّم. يارا تتّصل بأبناء عمّي وعمّتي في عمان، وأصدقاء أبي في رام الله، لننقل أبي إلى نابلس لدفنه. سهيل الذي بدا عليه القلق على حالتي أحضر تقرير وفاة أبي من قسم العناية المركّزة، كما أحضر تقرير وفاة خالته ملكة، وأحضر أيضًا فحوصي.

كان سهيل يقرأ التقارير ويتأكّد أنّ الأسباب التي حدّدها لموت أبي وموت خالته صحيحة. ثم قال تلك الجملة التي ستغيّر كلّ شيء إلى الأبد، قالها دون أن ينتبه أنّ مثل تلك الجمل لا تُقال بهذه البساطة والسذاجة أيضا، قالها كأنّ الأمر صدفة أو خطأ كوني: «أبوك دمه o موجب وأنت AB موجب، هيك مش صحّ»!

## ٢

لا أدري في أيّة ليلة حملت أمّي بي، لكنّني أعلم أنّه حين أصبح عمري تسعة أشهر، بدأت حياتي تتعقّد، وكلّ ما سأذكره لاحقًا هو أمر غير مؤكّد تمامًا، فهو منقول عن عدّة جهات، ليس فيها ما هو صحيح ولا ما هو حسن، فهي تتبع أهواء أصحابها ونيّاتهم الخاصّة.

تقول جدّتي من أمّي، إنّ أبي هدّد بنسف عمارتهم في منطقة الملعب البلدي في بيروت، إن لم يزوّجوه أمّي، التي لم تكن قد بلغت السابعة عشرة، والمولعة بابن الجيران عمر. وتقول عمّتي إنّ جدّتي كانت تبحث عن النفوذ في المنطقة السنّيّة التي يسيطر عليها أبي، بصفته القائد العسكري للمنظّمة هناك، فعرضت عليه الزواج من ابنتها، لتحمي ابنها، تاجر المخدّرات والحرامي. (تدّعي عمّتي أنّها حين كانت تزورهم في بيروت وتنام في غرفة خالي أحمد، كانت تجد أسفل السرير حقائب ملأى بالذهب والمجوهرات).

ما حدث دون أدنى شكّ أنّهما تزوّجا: هو الذي خرج من فلسطين على الحمار مرتديًا عباءة أمّه وغطاء رأسها الأسود، وهي

فاتنة من باريس الشرق بيروت تستهويها القصّات الحديثة والكعوب العالية والفساتين التي بلا أكتاف.

تقول أمّي: كان كريمًا جدًّا، يحضر أغلى الأطعمة، ويغيّر سيّارته وأثاث البيت كلّ سنة، لكنّه لا يتوانى عن التذكير بذلك مع كلّ مناسبة، فهو يخبرك عن ثمن العزومة في المطعم وثمن الهديّة التي قد يطالب باسترجاعها.

لا أحد يعلم بالضبط لماذا تطلّق الاثنان، لكنّني سأروي القصص المختلفة المتعلّقة بانتزاعنا من أمّي: تقول عمّتي إنّ أمّي كتبت تنازلاً عنّي وعن شقيقتي وخرجت في اليوم الذي سافرنا فيه من بيروت، ولم تعد إلى البيت كي لا ترانا. أمّا أبي فيتفاخر بقصّة أخرى تقول أحداثها إنّه وضع الرشّاش في رأس أمّي وأجبرها على التوقيع على التنازل، ثم أرسلنا إلى بيت عائلة فلسطينيّة في الجنوب، حتى أتت عمّتي وأخذتنا معها إلى عمان. الغريب أنّ أمّي لم تذكر هذه القصّة إلّا حين أخبرتها أنا بها، فهي لا تذكر شيئًا من العذاب الذي تقول جدّتي من أمّي إنّ أبي أذاقه لها، إلّا حين يتمّ ذكره أمامها. أنا لم أر هذا التنازل الذي تكلّمت عنه عمّتي أيّامًا طويلة، رغم أنّها كانت تلمّح لوجوده في علبة الماكنتوش الموجودة فوق الخزانة، والتي تحتوي على العديد من الأوراق السرّيّة الخاصّة بعمّتي.

أوّل ما تحمله ذاكرتي من صور، يعود لأيّام أخرى مختلفة تمامًا. أيّامها كنت أنام على الكنبة في غرفة الجلوس التي تفتح فتصبح سريرنا الخاصّ أنا ويارا، وأنا أتلصّص لأرى من ثقب

الغطاء ـ الذي يتوسعّ كلّ يوم بفعل أصابعي ـ مسلسل رأفت الهجّان المعروض على القناة الأردنيّة، وأتلقّى فردة حذاء عمّتي على رأسي، فأشيح برأسي إلى الجهة الأخرى وأكمل تقشير الطلاء عن الجدار، وأجاهد لأبعد قدم يارا النائمة على الجهة المعاكسة من الكنبة، والتي تضرب أسفل بطني بقصد وبدونه.

لم أعرف يومًا أن أنام وأنا جائعة، ولم أستطع أن أطلب أكثر ممّا تمنحه عمّتي من طعام، وهو غالبًا ربع رغيف وحبّة بندورة، هذا في حال قرّرت أنّني جائعة وهي في العادة تعتقد أنّني لست كذلك.

في تلك الأوقات، كان أبي عبارة عن صوت يأتي من إسبانيا عن طريق الهاتف. يتّصل كلّ شهر تقريبًا فيقلب جوّ البيت. وإن تأخّر اتّصاله تتحوّل عمّتي إلى حالة مزاجيّة غير محتملة، وتأخذنا بعد عدّة أيّام إلى مكاتب تابعة لمنظّمة التحرير في جبل الحسين، فنركب السرفيس وتضعني على حجرها كي لا تضطر لدفع أجرتي، وغالبًا ما تحدث مشكلة مع السائق على الثمانية قروش التي يطالبها بدفعها عن يارا، فنكمل الطريق مشيًا، وهي تلعن أبانا والسائق وكلّ شيء. نصل مكتب المنظّمة فيسألها رجل أصلع يقف على الباب «شو ما اتّصل أبو السعيد»، فتعيد عليه حكاية كلِّ مرّة، ثم تسأل عن رجل اسمه أبو الهول، الذي لا تجده في العادة، فتجرّنا خلفها إلى مكتب رجل أخر يدعى أبو العينين، رجل أسمر طويل ورأسه مليء بالشعر الشائب. يستقبلنا أبو العينين بحفاوة شديدة ويخبرنا كلّ مرّة أنّه صديق أبي من أيّام بيروت، ويعرف أمّي ويعرفنا

حين كنّا نسكن في الحمرا، ثم يذكّر يارا بالأيّام التي كان يأخذها بها إلى روضة الورديّة بالسيّارة، وكيف كانت تصرخ لأنّها لا تريد الذهاب إلى الروضة. لا تتحمّل عمّتي هذه القصص، فتقاطعه لتسرد القصّة نفسها التي تسردها على كلّ من تراه لأوّل مرّة أو للمرّة المئة:

«هذه ـ وتشير إليّ ـ ربّيتها وهي عمرها تسعة أشهر. وهذه ـ وتشير إلى يارا التي لا يعجبها الأمر فتبدأ بليّ لسانها ـ كان عمرها ثلاث سنوات، ولا يرسل لي سوى مئتي دولار. من أين لي أن أعيلهما»؟

تجفّف عرقها بحركة دائريّة ثم تعدّل من ثنية الإيشارب الرمادي المربوط على الطريقة الشاميّة ليظهر خصلات شعرها المحنّى. أنظر إليها من حيث أجلس على الكرسيّ الجلديّ الذي يحتكّ بفستاني فيجعله يلتصق بجسدي. لا أرفع عينيّ عن رجليها البيضاوين اللتين يقسمهما لاستيك الجراب النايلون المنسول على الجانب والمختوم بنقطة مانكير سهى الزهري. تنهي حديثها الذي يبدو أنّه لا يهمّ أبو العينين كثيرًا، بجملة ليست عرضيّة أبدًا: «هو داير عالنسوان وتارك بناتو الصبايا، أنا عندي شباب». تقول الجملة الأخيرة كحالة إنسانيّة طارئة يتجاوب معها الجميع دون تردّد. نرحل من مكتب المنظّمة بعد أن يعدها أبو العينين بالاتّصال به.

نمشي في جبل الحسين ونتفرّج على الفاترينات الكبيرة. نمسك بيدي عمّتي المبلولتين اللتين تضغطان وترتخيان بحسب الحالة المروريّة، نمرّ قرب المحالّ، حيث يبيعون بوظة تعبّأ

بالقراطيس، وأحيانًا تشتري لنا عمّتي كلّ واحدة قرطوسًا أو سندويشة فلافل بعد أن تفاصل صاحب الدكّان على سعر نصّ الرغيف.

وأخيرًا نصل إلى صالون التزيين الذي تعمل فيه سهى ابنة عمّتي. هذا اليوم كنّا نتلهّف لهذا المشوار، فأمّ جوني صاحبة الصالون أخذت يارا في المرّة السابقة إلى دكّان كبير بجانب الصالون واشترت لها علبة بسكويت محشوّ بالشكولاته وأشياء أخرى كثيرة، دخلنا هذه المرّة إلى الصالون وعيوننا تبحث عن أمّ جوني، رميناها بنظراتنا الساحرة، وتأمّلناها مطوّلاً من حيث نجلس على الكنبة الكبيرة الموجودة خلف كراسي التزيين دون أن ترانا عمّتي. لكن أمّ جوني كانت مشغولة بعمل تسريحة لامرأة لم أر مثلها يومًا. كانت أمّ جوني تزفر الشهيق إلى الداخل وتحاول أن لا تنظر في المرآة، بينما تعلو وجه المرأة تكشيرة ونظرة تشبه نظرة القرف التي تعتلي وجه ابن عمّتي الكبير حين لا يعجبه العشاء، والتي تشعل فتيل مشكلة تستمرّ طوال الليل. انتظرنا أمّ جوني لتنظر نحونا، لكنّها لم تفعل، وعندما انتبهت لوجود عمّتي طلبت من ختام زميلة سهى تسليمها خمسين دينارًا من الدرج، وألقت التحيّة على عمّتي على عجل. ودّعنا سهى بعد أن رفعت لها عمّتي ياقة البلوزة إلى الأعلى، وعدنا إلى البيت بخيبتنا.

اتّصل أبي بعد يومين معلنًا وصول الحوالة، فانقلب حال عمّتي وضحك سنّها.

عندما أسمع صوت أبي لا أستطيع أن أصنع له شكلاً محدّدًا.

فهو رجل من صوت، الحديث معه رسميّ، لكن يجب أن أقول له بابا. كان الأمر محيّرًا فقد كنت أقول لزوج عمّتي أيضًا بابا، وكان الأخير يقوم بجميع التصرّفات التي يقوم بها الآباء، فهو يحضر لي بسكويتًا محشوًّا بالكريما حين يعود من مصنع الحلويات حيث يعمل. أنتظره على شبّاك الباب الصغير كلّ يوم الساعة السابعة مساء، ثم أراقبه وهو يصعد التلّة المقابلة للبيت، يضع يديه خلف ظهره الأحدب مرتديًا بذلته السفاري الفستقيّة في الصيف أو ملتفًّا بالفلدة الجيشيّة والحطّة المرقّطة بالأسود أيّام الشتاء، فأبدأ بمراقبة يديه منتظرة أن يضطر لفكّهما ليوازن نفسه وهو يصعد التلّة، وتملأني اللهفة لمعرفة ما جلبه لي. مرّة اشترى لي هاتفًا يمكن جرّه من سمّاعته ليصبح سيّارة، ومرّة أحضر لي حقيبة يد، ومرّة لعبة حين أقلبها على بطنها تقول «واع».

في الليل يضعني على رجليه ويتركني ألهو بالثقوب الموجودة في فانيلّته البيضاء فتتّسع، وهو يردّد عليّ الجملة نفسها كلّ مرّة «أجبلك غزالة صغيرة صغيرة» فأردّ أنا كما أردّ دائمًا «أه يابا».

وحين تكون عمّتي في زيارة لأحد الجيران ويعود هو قبلها من العمل، يدخل المطبخ ويصنع أطيب صحن سلطة بالطحينة، ويخلط اللبن بالشطّة الحمراء فيصنع صحن «الميش» المفضّل لديه. أسخّن أنا الخبز على الغاز فأقرمشه، ثم نلتفّ أنا ويارا ومازن حول طربيزة صغيرة مرقّطة بالأخضر والأبيض نضعها أمام الكرسي المخصّص له في غرفة الجلوس، ونأكل بسرعة كأنّنا في سباق قبل أن تفرغ الصحون، ثم ننظّف كلّ شيء بعناية شديدة، ونجلس بهدوء بانتظار

عودة عمّتي التي ما إن تدخل البيت حتى تحرّك أنفها في الهواء بلفّة سريعة، ثم تدخل المطبخ فتسقط قلوبنا برجلينا. تقوم عمّتي بجولة على سلّة المهملات والنمليّة والثلّاجة، ثم تخرج إلينا حاملة بيدها قنّينة زيت زيتون، وتوجّه الكلام إلى زوج عمّتي: «خلّصت القنّينة. ما بتعرف إلّا تغرّق السلطة بالزيت. مأنا طابخة ليش ما تعشّيت من الطبيخ»؛ فيردّ زوج عمّتي: «شو مركّبة أنف كلب»؟

وتبدأ مشكلة كبيرة: تسبّ عمّتي اليوم الذي تزوّجت فيه من لاجئ هي بنت المدن، فيعيّرها هو بالزنوبا التي كانت تلبسها أوّل مرّة رآها فيها في بيت شقيقتها في البلدة القديمة في نابلس، ولا تنتهي المشكلة إلّا بعودة ابن عمّتي الأكبر الساعة العاشرة أو الحادية عشرة.

يشاركنا مازن ابن عمّتي الأصغر في الأفعال السرِّيّة التي نفعلها مع زوج عمّتي، لكنّه دائمًا غاضب. وتقول سهى إنّ وجودي أنا ويارا سبب في التقليل من شعبيّته في الأسرة، لهذا هو يطبق يده حول رقبتي طوال الطريق حين نذهب لشراء صحن الحمّص من عند الفوّال أبو أحمد، وعندما أصرخ يخفّف قبضته قليلاً ثم يعود ويغرزها مرّة أخرى. ورغم أنّه يكبر يارا بعشر سنين فإنّ المشاكل بينهما لا تنتهي.

يملأ الشيب رأس مازن، وتقول عمّتي إنّ الشيب سببه «الخوفة» التي أصابته حين دخل الجيش الأردني بيتنا في حرب أيلول باحثين عن عمّي فيصل. أنا لم أكن موجودة حينها، لكن عمّتي تصف الأمر بالمعركة الكبيرة بين الفلسطينيّين والأردنيّين،

ولهذا تمنعنا من قول أيّ شيء عن عمّي فيصل أو عمل أبي في المدرسة. مس فاطمة، كانت من الطفيلة، وهي أردنيّة أصليّة ـ هكذا قالت عمّتي ـ كانت تحفّظني الشعر وتناديني حين تأتي لجنة من الوزارة لأقدّمه أمامهم. لا أدري كيف حصل أنّني أصبحت شاعرة المدرسة منذ كنت في الروضة، لكنّني أذكر أوّل قصيدة كتبتها في الحمّام. كنت عائدة من حفلة مدرسيّة بمناسبة عيد الأمّ في مدرسة يارا، التي أصبحت مدرستي لاحقًا، وقد قدّمتني عمّتي للمعلّمات بأنّني أستطيع أن أقدّم قصيدة عن الأمّ. أصبحت فجأة على المسرح. وضعوا لي كرسيًّا لأصل السمّاعة، وبدأت بقراءة قصيدة لا أذكرها، لكنّني أذكر عيون النساء وهي تدمع ثم يصبن بنوبات بكاء. كنّ يتهامسن ويؤشّرن عليّ بأسى. سمعت واحدة تقول للأخرى: «أمّها ميتة بحرب لبنان». والتفّ حولي الجميع بعد أن فرغت يقبّلنني ويعطينني شوكولاته. عدت يومها إلى البيت سعيدة. لقد كانت الحفلة وما بعدها أجمل ما حصل لي طوال حياتي.

عرفت منذ ذلك اليوم تأثير الكلام وقدرته على منحي فرصة الاسترخاء في حضن مس فاطمة والستّ زينب مديرة المدرسة بعد كلّ قصيدة، وهما مذهولتان من قدرتي على التعبير بهذه الصورة، على المسرح أو خلف سمّاعة الإذاعة المدرسيّة. ولأنّ الأمر كان مفيدًا صرت أحاول أن أحفظ قصائد جديدة تبهرهما أكثر وأنا أدور حول السجّادة في الغرفة الخلفية.

زارنا أبي للمرّة الأولى في عمان. كان عمري حينها ست

سنوات. طبعًا تصرّفت كما تتصرّف أيّة فتاة حين ترى والدها للمرّة الأولى. كانت صيفًا وكان أبي ينتظر في غرفة الجلوس على الكنبة التي هي سريري. لم يكن أحد يعلم أنّه سيدخل عمان، فقد كانت عمّتي تقول إنّه ممنوع من الدخول، وإنّه إن دخل فستسجنه المخابرات الأردنيّة، فهو من المشاركين في أحداث أيلول الأسود، التي استشهد خلالها عمّي فيصل صاحب الصورة المبروزة في غرفة الضيوف، لذلك لم يخبر أبي أحدًا بقدومه.

قالوا لي: «هذا أبوك»، فبكيت وسعدت وتصرّفت كما يجب أن أتصرّف.

كان أبي يبدأ بأكل حبّة البوظة السابعة حين أتيت، وكان يضع عشر حبّات أخرى في برّاد عمّتي الموجود في الصالون بجانب الكنبة التي هي سريري. حين ضمّني كانت رائحته عطرة جدًّا لم أشمّ يومًا رائحة مثلها. ليس طويلاً، على عكس أبي الآخر. له كرش صغيرة في منتصف جسده وبعض الشعر في مقدّمة رأسه. أسنانه التي كانت تبرز وهو يقضم حبّة البوظة من نوع الأسكيمو، مغطّاة بطبقة بنّيّة مائلة إلى الصفرة. اشتهيت حبّة البوظة التي في يده، ولاحظ هو الأمر فأعطاني حبّة بوظة من النوع الذي لم أجرّبه في حياتي. تعرّفت ذلك اليوم على البوظة التي لها بسكوتة وفي آخر البسكوتة قطعة شكولاته على شكل هرم. جلست قربه على الكنبة وكان يلفّني بيده بينما يتكلّم مع عمّتي عن إيقافه من قبل المخابرات في المطار، وأنّ عليه أن يراجع المخابرات في اليوم التالي، لأنّهم حجزوا جواز سفره. كان يتكلّم بانفعال ويضغط على عنقي، رغبت

في تحريكه، لكن ذراعه كانت ثقيلة فلم أجرؤ.

وجوده غيّر كلّ شيء: الجميع أصبحوا لطفاء بشكل استثنائي، وأصبحنا فجأة أنا ويارا أصحاب النهي والأمر في البيت. أصبت بالانفعال، وكنت سعيدة لما يحدث: طعام كثير وعمّتي حنونة جدًّا وصوتها أقلّ حدّة من العادة.

في الليل، كعادتي جلست في حضن زوج عمّتي، بعد أن خرجت من الحمّام متألّمة من الباصور الذي يؤلمني بشدّة بعد كلّ إخراج. صرخ بي أبي الذي من صوت وكاد يضربني وهو يقول إنّه هو أبي وهذا زوج عمّتي وأنّه «سيطخّني» إن قلت له بابا مرّة أخرى.

بقي أبي ـ «وحش البوظة» كما أطلقنا عليه أنا ويارا ـ في عمان خمسة عشر يوما حاول خلالها أن يخطب فتاة اسمها مريم عرّفته عليها سهى. عندما زرنا مريم في بيت أهلها في جبل عمان أخذتنا بفرح أنا ويارا إلى غرفة شقيقاتها الكثيرات، وقالت لهنّ «هنّ بناتي»، وأعطتني حبّة شكولاته غالية الثمن محشوّة بالكراميل، واشترت لي، ونحن نمشي في السوق مرّة، علبة من أصابع البسكويت يصاحبها مربّع من الشكولاتة نقوم بغمس البسكويت بالشكولاته فيصبح طعمها رائعًا. كان ثمن العلبة خمسة وعشرين قرشًا، أي أنّه سيلزمني اثنا عشر يومًا من الجوع لشراء علبة مماثلة.

المصروف الذي تمنحه عمّتي لي وليارا قرشان ونصف القرش، وهذا المبلغ لا يمكن أن يشتري حتى نصف رغيف صغير من الفلافل. أنتظر يارا على درج المدرسة لنجمع مصروفي

ومصروفها فيصبح معنا خمسة قروش نشتري بها الفلافل ونقتسمها، وعادة لم تكن تلك القطعة الصغيرة تشبعني أو تشبعها، فكنت أشتهي ما تحمله الفتيات من شيبس وعصير وساندويتشات لذيذة، وغالبًا ما كنت أطلب من نور صديقتي أن تطعمني ممّا تأكل. وقد سبّب الأمر لي إحراجًا شديدًا حين شكتني نور للمس فاطمة وصارت الفتيات يُخبّئنَ الطعام حين يرينني.

كان أبي مرتبطًا بكلّ ما هو لذيذ: مطاعم، بوظة، وحتى مصروف كبير. لن أنسى كيف اتّصلت المديرة بعمّتي لتسأل هل سرقت القروش العشرة التي كانت بحوزتي، والتي أعطاني إيّاها أبي في الصباح، والتي أمرتني عمّتي سرًّا أن أصرف نصفها وأُعيد الباقي.

لم تكتمل خطبة أبي من مريم. كلّ ما أعرفه أنّ عمّتي بدأت تردّد أنّ المضيفات شراميط، حين قرّر أبي فجأة أن يترك مريم، بينما قال أبي لعمّتي في واحدة من المشكلات التي كانت تشتعل بينهما، إنّها السبب، لأنّها كانت تغار من مريم، الأمر الذي أشعل غضب عمّتي فردّت عليه بأنّه هو الذي يعشق الشراميط، ثم ذكرت أمّي أكثر من مرّة مع قصص لم أفهمها.

عمّتي استردّت الشبكة من مريم، وهي سوار ذهبي عريض وثقيل جدًّا صارت تلبسه لاحقًا كلّما ذهبت إلى مناسبة أو زيارة مهمّة. وعاد أبي إلى إسبانيا دون أن يذكر مريم مرّة أخرى.

لم يعد أبي ليكون أبًا من صوت منذ ذلك الحين، أصبح مرتبطًا ببعض المشاهد التي ستتكرّر في ذهني كلّما ذكر اسمه،

كالشخير الذي يصل بيت الجيران، والنوم بعد تناول وجبة الغداء، ومطعم التوليدو وأكل البوظة. كما أنّ وجوده كأخ لعمّتي التي كنت أقول لها ماما جعل الأمر أكثر توازنًا في رأسي: فهي ليست أمّي. أسعدني الأمر كثيرًا. كنت أريد أن أخبر جميع من ألقاه في الشارع أنّ هذه المرأة أخت أبي وليست أمّي، وأنّني لا يمكن أن أشبهها كما تقول.

وأصبحت منذ ذلك اليوم أسمع شائعات تتعلّق بأمّي، فمرّة أسمع أنّها ماتت في أحداث لبنان، وهذا ما كانت تقوله عمّتي للمعلّمات في المدرسة، وكانت تشدّد علي ألّا أخبر أحدًا بحقيقة عمل والدي، فكنت إن سألتني معلّمة أقول: موظّف. وحين أسأل موظّف بماذا؟ أصمت كالبلهاء. كنت أشعر بالمسؤوليّة والغموض، وكان الأمر يجعل منّي حديث كلّ صفّ أنتقل إليه، حيث كانت المعلّمات في أوّل كلّ سنة يسجّلن المعلومات الخاصّة بعمل الأهل وحالة الوالدين، فكنت أحار ماذا أقول حين أسأل عن أمّي. كنت أريد أن أقول لهم إنّ عمّتي ليست أمّي، لكنّني أخاف أن تسمع بالأمر فتضربني. أمّا بنات الجيران اللواتي كنّ يسألن شقيقتي عن كون اسم عائلتنا مختلفًا عن اسم عائلة أولاد عمّتي، فقد كانت تردّ بأنّ أمّي موجودة في لبنان، وقد كان الأمر سرًّا فلم نبح به إلّا في الهمس خوفًا من أن تسمعنا عمّتي.

وأصبح لي سرٌّ أخيرًا، وحالة خاصّة تميّزني بحقّ من الآخرين، فأصبحت أدخل إلى الغرفة التي ينام فيها أولاد عمّتي وأفكّر. كانت الغرفة بعيدة، تنفصل عن بقيّة البيت بوسط دار

مفتوحة من الأعلى ملآنة بتنكات الجبنة والزيتون التي تحضرها عمّاتي اللواتي يسكنّ في فلسطين حين يأتين لزيارتنا في الصيف، وتزرعها عمّتي بالبكونيا والكوشوكة والخبّيزة حين تفرغ.

ذهلت أوّل مرّة رأيت فيها صورة أمّي، فإن كان أبي من صوت، فقد كانت أمّي من شائعات وأسرار. فتحت سهى علبة الماكنتوش الخاصّة بعمّتي وأخرجت منها صورة صغيرة بالأبيض والأسود وقالت: هذه هي أمّك. كانت المرأة التي في الصورة جميلة بشكل غريب، لم أر في حياتي مثيلاً لوجهها، لكنّني كنت أشعر بأنّها مألوفة. لم تكن تشبه ممثّلات التلفزيون، ولم تشبه الناس العاديّين الذين نقابلهم في الطريق.

وأصبح هذا سرّي الثاني الذي أتشاطره مع يارا وسهى، فنفتح العلبة كلّ يوم أحد ـ يوم عطلتها من صالون التزيّين ـ حين تكون عمّتي في السوق تشتري الخضار، ونستمتع نحن بكلّ ما هو محرّم، فنشرب الكاكاو ـ الذي عرفناه لأوّل مرّة بمناسبة حصول سهى على دينار علاوة على مصروفها الشهري ـ وندخّن نفسًا واحدًا من السيجارة التي تشعلها في الفسحة، أو نتناول مسحوق الحليب الناشف المخلوط بالسكّر.

وهكذا تكوّنت لي بضعة أسرار، بدأت أضيف إليها أسرارًا جديدة كلّ يوم، وأدور حول السجّادة في الغرفة الخلفيّة مدّعية أنّني أقوم بحلّ واجباتي المدرسيّة التي كانت تطول قرابة سبع ساعات يوميًّا. كنت أثناء دوراني ألتقي أمّي مئات المرّات وأبكي وتبكي ويبكي الجميع من هول اللقاء العاطفي الذي تدوم فيه اللحظة

لساعات، ثم أنتقل إلى موضوع آخر، فأتخيّل مشاهد جديدة، كموت زوج عمّتي أو هربي أنا ويارا من بيت عمّتي أو موت عمّتي وذهابنا إلى الملجأ. وبدأت أسجّل، حين تعلّمت الكتابة، ما أفكّر فيه على ورق، وأصبحت أسراري مدوّنة ولا بدّ من الحفاظ عليها بطريقة مختلفة، فهي لم تعد ملكًا لي وحدي، أصبحت قابلة للإمساك والمحاسبة. لقد أصبحت أسراري خطيرة الآن.

لعمّتي ثلاثة أولاد وبنت واحدة، الابن الأوسط نراه في العطل الصيفيّة حين يعود من دمشق محمّلاً بالجبنة المجدّلة وأصابع الشوكولاته اللذيذة التي تخبّئها عمّتي في الخزانة وتقفلها بالمفتاح. الابن الأكبر يعمل في ورشة «للفّ الموتورات» وهو كما تقول عمّتي يصرف نقوده على العاهرات والممرّضات في مستشفى الخالدي، وهو يقول في كلّ مناسبة إنّه هو من يصرف على البيت وعلى تعليم أخيه في دمشق، فتردّ عمّتي بأنّ الستّين دينارًا التي يأتي بها لا تنفعها بشيء، ويدخل الجميع فجأة في صراخ هائل يصاحبه صوت لهيب البابور الذي يشتعل يوم الجمعة لتسخين المياه التي سنستحمّ بها الواحد تلو الأخر.

كنت أكره يوم الجمعة كما أكره الصوت الذي يصاحب الصراخ والأزيز والتهجّم الذي يبدأ مع وقت الفطور وينتهي بعد تناول وجبة الغداء، حيث ينام بعضهم أو يتابعون برنامج ما يطلبه المشاهدون على القناة الأردنيّة. كما أنّ وجود أبناء عمّتي في البيت يمنعني من استخدام الغرفة الخلفيّة، فأضطر إلى البقاء حيث يوجد الجميع.

في إحدى الجمع، حين كان الجميع يتابعون التلفاز في غرفة الجلوس، ذهبت إلى الغرفة الخلفيّة وبدأت بالدوران حول السجّادة. بعد دقائق سمعت صوت أحدهم آتيًا، فركضت إلى السرير، وتظاهرت بالنوم. كنت أتمدّد على بطني وأشيح بوجهي جهة الجدار. كانت صيفًا وأنا ألبس فستانًا صيفيًّا خفيفًا ارتفع عن ساقيّ حين هبطت على السرير بسرعة.

بعد مدّة قصيرة تخلّلها صوت الخزانة تفتح وتغلق عدّة مرّات أحسست بشيء ما أسفل جذعي، ثم بدأت يد تتحسّسني ببطْ، بدأت من ساقي ثم ارتفعت إلى فوق. لم أجرؤ على النظر أو التنفّس. كنّا نلعب في المدرسة لعبة الطبيب والمريض، فنرفع عن فساتيننا ويعطينا الطبيب إبرة في مؤخّرتنا، ونكفّ فورًا إن رأينا المعلّمة آتية من بعيد.

تشنّجت مؤخّرتي دون أن أقصد. كان العضل ينسحب إلى الداخل تمامًا مثلما كان يفعل حين يغزّ قلم الرصاص مؤخّراتنا كإبرة.

بعد أقلّ من دقيقة، جاء صوت عمّتي مناديًا ابن عمّتي الكبير، فانسحبت اليد. أسدلت فستاني عليّ وأغلقت الباب بسرعة.

سرّ جديد أضيف إلى أسراري الماضية، لكنّه سرّ مخيف، لن أذكره لأحد مهما تكرّر، مع اختلاف الظروف والأيدي.

وبدأت الأسرار تتكاثر: كان هناك سرّ يارا وابن الأستاذ الذي يقف على شرفة بيته في الجبل المقابل لوادي الحدّادة، وتقف أختي في شبّاك الباب الصغير لساعات وهي تؤشّر له بيديها بلغة لا

أفهمها. التقته مرّة أثناء شرائها الملوخيّة من سيّارة بيع الخضار في الشارع السفلي، أعطاها رسالة كانت أوّل رسالة حبّ أتعرّف عليها مكتوبة على ورق ملوّن له رائحة وفيها كلمات مبهمة وغير مفهومة ورقم هاتف.

وأصبحت أشاطرها الترقّب واللهفة والإشارات التي ترسمها في الهواء حين تخرج عمّتي من البيت ليتّصل بها، فأقف أنا على شبّاك الباب خوفًا من أن تأتي عمّتي فجأة. ما فعله ابن الأستاذ بعد مدّة كان مفاجئًا، هو كان في الثانويّة ويارا في الصفّ السادس. حين نجح في امتحان الثانويّة العامّة وانتقل إلى الجامعة لم يعد يقف على الشرفة أو يرسل رسائله الجميلة أو يتّصل، وبكت يارا في الحمّام وفي المطبخ وفي الغرفة الخلفيّة. بكت حتى تعرّفت على ولد آخر كان يتبعها في الطريق إلى المدرسة.

نتسلّق جبل القلعة من أجل الوصول إلى مدرسة فراس الحمداني الأساسيّة، المدرسة الأقرب لوادي الحدادة. في الصيف يمتلئ الجبل بالأزهار البرّيّة الصفراء ذات الاسم المضحك «فسوة الكلب»، والسنابل الخضراء التي تصفرّ لاحقًا، والأشواك التي تغزغز قدميّ وأنا أحاول مجاراة يارا التي تتركني خلفها لتمشي مع صديقتها ليلى. لقد أصبحت تلبس مريولاً أخضر الآن، وأنا لا أزال بمريولي الأزرق (الذي هو مريولها) فيحرجها المشي بجانبي.

يلحق بنا الأولاد على الطريق الترابي الضيّق الذي يقطع الجبل، فيصفّرون ويوجّهون كلامهم نحونا، تصاحبه حركات ورسائل. كانت يارا تتصرّف كأنّها لا تراهم، لكنّها تعدل من

مشيتها وتغرز كفّها في شعرها الأسود الناعم المقصوص كاريه، والذي ينسدل على وجهها، وترفع رأسها بحركة مفاجئة ومفتعلة، وتنظر نحوهم كأنّها لا تفعل. كنت أحسدها على قدرتها على غرز يدها في غرّتها لتزيحها إلى الخلف بهذه الطريقة، أنا التي لم ينمُ شعري يومًا، لأنّ سهى تتعلّم القصّ بشعري، فلا يكاد يطول حتى تأتي بقصّة جديدة تجرّبها عليّ.

مرّة رفع ولد منهم مريولي فبكيت كثيرًا، وكان كلّ ما فعلته يارا هو التظاهر بأنّني غير موجودة، ثم تأنيبي لاحقًا على حماقتي في إظهار مشاعري في الشارع بهذه الطريقة.

لم تشبهني يارا بشيء، لا في العينين ولا لون البشرة ولا التصرّفات ولا طريقة الكلام. الجميع يُفاجأون من كوننا أختين ويبدأون المقارنة، كأن يقولون أنا أجمل أو يارا شعرها أنعم، أو هذه تشبه أمّها وتلك تشبه أباها. وكنت أكره أن يفعلوا ذلك، فقد كان الأمر محرجًا، لكنّني أصمت وأتظاهر بأنّني لا أسمع.

يارا، التي كان يبدو عليها الانزعاج من كلّ شيء، كانت تقف في وجه عمّتي وتصيح لأسباب عدّة، مثلاً إن لم يعجبها فستان العيد أو قصّة شعرها. كنت أحاول أن أقول لها إنّه جميل جدًّا كي لا تصيح، فأرتعد من الخوف وهي تردّ في وجه عمّتي دون خوف، فترميها عمّتي بالحفايات أو تعضّها من ساعدها.

لم نسمع عن أمّي أيّ شيء حتى ذلك الوقت، فقط مرّة واحدة أتت أمرأة كبيرة في السنّ تضع نظّارات سميكة فوق عينيها، قالت لنا عمّتي وهي تلبسنا ثياب العيد الصغير، وتضع لنا من عطر

الياسمين الخاصّ بها: «إن سألتكم بدكم أمّكم قولوا لها ما بدنا ياها إحنا ما إلنا أمّ»!

ذلك اليوم كانت عمّتي تعاملني أجمل معاملة، فشعرت بالسعادة الشديدة، وصرت أصيح وأصرخ في وجه تلك المرأة: «ما إلنا أمّ ما بدنا ياها»، كأنّني أقوم بدور مسرحي أخرجت به كلّ مواهبي التمثيليّة وأنا أنظر إلى عمّتي لترضى عنّي.

الغريب أنّه رغم ما قلته أعطتني تلك المرأة لوح شوكولاته بيضاء به قطع زبيب سوداء، أكلت أكثر من نصفه وهي موجودة، خوفًا من أن تصادره عمّتي لاحقًا، كما صادرت الدينار الذي جعت شهرًا لأجمعه من مصروفي لتشتري به علبة زيت.

تلك المرأة صاحبة النظّارات السميكة، كانت جدّتي من أمّي. علمت ذلك بعد سنوات عديدة، وهي تسرد لنا تفاصيل الزيارة، وكيف طردتها عمّتي إلى الشارع بعد وابل من الشتائم الكبيرة.

تخبرني جدّتي في عرض حديثها بعد سنوات عديدة من تلك الحادثة كيف استقبل أبي نبأ ولادتي في المستشفى، وكنت الفتاة الثانية. كان ينتظر ولدًا بفارغ الصبر، قالت، والقول لجدّتي: «أخذني إلى الروشة وقال: سأكبّك في البحر يا شرموطة. صار عندي بدل شرموطتين ثلاث شراميط».

سأعلم دائمًا أنّ أبي كان يتمنّى ولدًا، وأنّنا بالنسبة له لسنا إلّا مشروع عاهرات سيقوم بتأجيله بكلّ ما أوتي من قوّة. كان يقول دائمًا: «بنتك إن طلعلها قرن أكسره». هذه الجملة هي الرؤيا العريضة في مشروع التربية الخاصّ به.

تأخّر أبي عن الاتّصال ستّة أشهر متواصلة، لم تفلح خلالها كلّ زيارات عمّتي إلى مكاتب المنظّمة، إلى أن وصلت إليها إشاعة مفادها أنّ أبي انتقل إلى تونس، وأنّه خطب فتاة لبنانيّة عمرها ٢٢ عامًا.

جنّت عمّتي وأصبحت تثرثر بالموضوع طوال اليوم، وأحسست بأنّنا لن نرى هذا الرجل مرّة أخرى. لكنّها تمكّنت من الاتّصال به أو بأحد أصدقائه وأخبرته صراحة أنّها لا تريدنا في بيتها.

وفي صبيحة أحد الأيّام، ألبست شقيقتي فستانًا صغيرًا أظهر النتوءين الصغيرين في صدرها، وأخذتنا إلى مكتب في وادي صقرة، حيث قابلت أخيرًا ذاك الرجل المدعوّ أبو الهول وقالت: «أنا عندي شباب والبنات كبروا ياخد بناتوا ويريّحني».

بعد أقلّ من شهر كنّا في تونس.



## أبو السعيد

يضع يده في جيبه ويحلف «والله غير هالدينار ما معي» يمشي بخطى سريعة في ممرّ المكتب، دون أن يتركه عوني بحاله، يريد ١٠٠ دينار سلفة على الراتب، كما يريد محمود خمسين وأبو عاطف مئتين.

يهرول بينهم كأنّه نجم سينمائي يتفادى المصوّرين الذين ينقضّون عليه من كلّ جانب. منذ أن تسلّم المنصب تعلّم أنّ عليه إفراغ جيوبه قبل الدخول إلى المكتب حتى لا يكذب إن اضطرّ إلى الحلفان، فيحلف بكلّ ثقة «والله ما في بجيبتي إلّا مية ملّيم».

الجميع يريدون سلفة، محمود جاءه ولد جديد ويريد أن يغطّي مصاريف الولادة، وأبو عاطف يريد أن يرسل زوجته وأولاده لزيارة أهل زوجته في بيروت، وعوني يريد نقودًا ليصرفها على العاهرات الفرنسيّات في كازينو البلازا.

يحفظ قصصهم عن ظهر قلب، فهي تتكرّر كلّما صار الشهر في عشرينيّاته، مع اختلاف الأشخاص المشتكين. لكنّه لا يستطيع

تلبية ما يريده الجميع، فهو وإن كان يملك صندوق المال في المكتب، فإنّ ميزانيّة الجهاز الشهريّة لن تكفي تحقيق عشر طلباتهم. سيرفع كتابًا بخصوص محمود، أمّا البقيّة فيمكن أن ينتظروا إلى الشهر المقبل.

يصل مكتبه، يتصل بالبيت، تردّ يارا، يسألها عمّا يفعلونه ويقفل الخطّ. يتّصل مرّة أخرى ليتأكّد أنّها لم تشغل الخطّ بعد اتّصاله، ثم يقفل الخطّ قبل أن يجيب أحد.

الساعة الواحدة ظهرًا يضع المفتاح في الباب بهدوء. يدخل بهو غرفة السفرة. يسمع صوت البنتين. يتبع الصوت الذي يخمد فجأة. جمانة تجلس على الكنبة في غرفة التلفاز، وقبل أن تقول كلمة «مرحبًا» يتسلّل ليبحث عن يارا التي لا يجدها في غرفة النوم. يسمع صوت السيفون، يفتح باب الحمّام فيجده مغلقًا «شو بتعملي» يسأل، وهو لا يكفّ عن تحريك يد الباب الذي يفتح لتخرج منه الفتاة السمراء: «بشخ»!

ـ وليش مسكّرة الباب؟

لا تعرف ماذا عليها أن تجيب.

يدخل إلى الحمّام. يلقي نظرة فاحصة خلف المغسلة وداخل السيفون وعلى حافّة الشبّاك الخارجيّة، وحين لا يجد شيئًا، ينظر إلى الفتاة التي لا تزال واقفة قرب الباب ويقول: «بعلّقك بالسقف إذا بتسكّريه كمان مرّة».

ودون أن ترفع عينيها عن عينيه تردّ: «طيّب».

يعرف أنّها تشبهه. «جِكْرة». مهما حاول ترويضها لا يستطيع أن يكسر من عينيها تلك النظرة الجكرة، عكس جمانة التي ترتجف حالما تراه. منذ اليوم الذي جاءتا لتسكنا معه في تونس، وضع خططًا محكمة تشعر الواحدة منهنّ أنّها مراقبة على الدوام، وأنّه سيكون فوق رأسها في أيّة ثانية. عليهنّ أن يشعرن دائمًا بالخوف، حتى حين لا يكون في المنزل، وإلّا فإنّه سيفقد السيطرة على أفعالهنّ.

يدخل غرفته. ينزع عنه القميص الأبيض الذي بلّله العرق من الطريق من المكتب حتى بيته. يخلع البنطال الكحلي والفانيلا والكيلوت. يكوّرها كلّها على الأرض ويلبس شورته الأخضر الكالح، فيبدو كلّ شيء فيه مترنّحًا. يتمنّى لو أنّه يرمي بنفسه فوق السرير لينام في هذه الظهيرة الحارّة، حتى يأتي اليوم الثاني.

تتبعه جمانة نحو المطبخ بصمت، بينما تتمدّد يارا على الكنبة في غرفة الجلوس تتابع التلفاز.

ما إن يدخل المطبخ، حتى يبدأ باستذكار وصفات الطبخ التي لقّنته إيّاها شقيقته سميرة أو زوجة أخيه زاهرة أو بنت عمّة أمّه منتهى على الهاتف، وإن لم تعنه الذاكرة يعود ليتّصل بواحدة منهنّ فتلقّنه الطريقة كلّ مرّة بشكل مختلف، كلّ وصفاته تلفونيّة تنقصها تلك النفس التي كانت لأمّه في كلّ طبخة.

عندما تكون واحدة منهنّ في زيارة لإحدى الجارات، يبدأ الأولاد بمناداة أمّهاتهم وهم يصرخون: «خالي خالي على الهاتف» فتركض الواحدة منهنّ لاستقبال هذا الهاتف العزيز للغائب الذي لا

يعرفونه إلّا على الهاتف. هاتفه يعني أنّه خصّها هي وحدها دون الأخريات.

الأولاد يعرفون هذا الخال فقط من صوته، ويرسمون له صورًا لا تُحصى، أمّا الأمّهات فيعرفنه شابًّا جميلاً ذا شعر أسود مالس، وجسد نحيل، يفصّل كلّ عيد جاكيتًّا جديدًا عند الخيّاط الوحيد في المدينة، أبو سالم، ناسخًا موديل جاكيت عبد الحليم حافظ في كلّ فيلم جديد تعرضه السينما الوحيدة في المدينة أيّام الجُمع، الذي يتحضّر لها الجميع طوال الأسبوع. هو الذي لفّ الدنيا بينما لم تخرج الواحدة منهنّ خارج حدود نابلس إلّا إلى بيت إفتكار في عمان. يسمع صوت الشحاطات وهي تمسح الأرض مسرعة لتلحق بذلك الهاتف ولا تكلّفه الكثير من الدينارات.

يحوس الدجاج بالقليل من الزيت ثم يضع فوقه الماء والبصلة وحبّة الهال وورقة غار تمامًا كما قالت سميرة. تقف جمانة عند المجلى تقشّر الثوم حسب طلبه، ثم تقطّع حبّة البندورة التي نسيت أن تغسلها لتحضير السلطة، يسألها هل غسلتها أم لا وحين لا تخرج الكلمات من فمها يسقط على رأسها مفرمة الخضراوات الخشبيّة. عديمة الفائدة، «كوليرا» هي منبع الكوليرا في البيت، ملامحها التي لم تنضج تضفي عليها شيئًا من البلاهة، عيناها اللتان تحدّقان بالأشياء دون ردّ تشبهان عيون الساحرات، تستطيع أن تكسر الصحن في يده أو تسقط الصينيّة على الأرض، تضع على رأسها طوقًا فسفوري اللون وتلبس ذلك الشورت الأصفر الذي يستفزّه، كلّ ما جلبته معها من عمان يثير تقزّزه، يشتمّ به رائحة

وادي الحدادة، وفقر إفتكار وكلماتها المسمومة.

الأخرى واضحة، يعرف متى تكذب ومتى تتصنّع ومتى تقول الصدق، لكن هذه لا يعرف عنها سوى هذه النظرة. الطبيبة قالت له حين أخذها عندها لوجع لا ينتهي في خاصرتها، إنّ حالتها نفسيّة، كانت تلك الجملة كفيلة بحقده عليها أكثر.

ماذا تعني بحالة نفسيّة، هو الذي يحاول أن يكون أبًا وأمًّا معًا، ولم يتزوّج طوال الخمسة عشر عامًا الماضية ليربّيهما. هو الذي انتقل من إسبانيا إلى تونس ليتمكّن من الإتيان بهما من عند إفتكار، تقول له حالتها نفسيّة. كانت طريق العودة من عند الطبيبة التونسيّة السمراء، طويلة على تلك الفتاة ذات الخلقة الصغيرة البلهاء التي تعاني حالة نفسيّة.

يكمل يخنة البطاطا بينما تحضّر الفتاة الكبرى الصحون، يتذوّق الطعام ويعرف أنّه بلا طعم، لكن على الفتاتين أكل الصحن كلّه، لقد عادتا من عند إفتكار هزيلتين من قلّة الأكل وعديمتي الأخلاق أيضًا.

يضع لكلّ واحدة صحنًا كبيرًا من الطعام ويجلس هو الآخر ليأكل. تتناولان الطعام بصعوبة، لكن دون أدنى اعتراض، وهو يراقب أكثر ممّا يأكل. يعرف أنّه ما إن ينهض عن الطاولة حتى تفرغا الصحن في مكان ما، ربّما تفرغانه من الشرفة فهو يسمع القطط تموء كلّ يوم في هذه الساعة. راقب طويلاً، لكنّه في النهاية استسلم وانتقل ليدخّن سيجارته في غرفة الجلوس. لا أجمل من سيجارة بعد الطعام. المقدّسة! يقول لنفسه وهو يدحش سيجارة

الدنهيل العريض بين شفتيه الغليظتين، ويرخي جسده على مخدّة الصوفا الأميركيّة الموردة. وحتى وهو يسمع أصوات الصحون تتحرّك في المطبخ معلنة أنّ الطعام قد انتهى في القمامة على الأغلب، إلّا أنّه لن يفعل أيّ شيء سوى الاستسلام لهذا الخدر.

بعد الغداء يدخل الغرفة ليأخذ قيلولته المقدّسة التي تمتدّ من الساعة الثالثة حتى السادسة، والتي تمتلك قوانين محدّدة أفهمها للبنتين بالنار والحديد: ممنوع الصوت. ممنوع أن يوقظه أيّ مخلوق، وممنوع الردّ على الهاتف.

يصبح البيت صامتًا فجأة لا يخترقه سوى صوت شخيره المتواصل. تنام الفتاتان المجبرتان على ذلك، فالعطلة الصيفيّة المملّة لا تترك لهما شيئًا سوى النوم.

حين يستيقظ تبقى الفتاتان في فراشهما دون حراك. يعرف أنّ الصغيرة تمثّل النوم، فهي تشدّ على جفنيها بقوّة، أمّا الكبرى فهي نائمة حقًّا. ينتقل إلى غرفة الجلوس بعد أن يحضر حبّتي بوظة من المجمّدة، يتمدّد رافعًا رأسه على وسادة الصوفا متابعًا قناة M6 الفرنسيّة ليحضر حلقة «المهمّة المستحيلة» باللغة الفرنسيّة التي لا يفهمها.

يتّصل أبو عاطف ليخبره أنّ لعب الشدّة سيبدأ بعد نصف ساعة، فيحضّر نفسه للخروج، ويصبح البيت ملكًا للفتاتين مرّة أخرى.

كان يلزمه بعض الطول ليصبح هو مديرًا للجهاز. ربّما لو كان لديه المزيد من الشعر وزالت كرشه قليلاً. لا فرق بينه وبين المدير

سوى تلك الفروق البسيطة. الشهادة الجامعيّة لا تهمّ، فلا أحد يمكنه أن يشكّك في أنّه اضطرّ للخروج من المدرسة من الصفّ السادس ليلتحق بالفدائيّين، رغم أنّه ترك المدرسة قبل ذلك بكثير، وعمل صبيًّا عند الكهربائي صلاح الجعبة، وكان يقبض في الشهر دينارًا كاملاً. وإن شكّك أحد بالأمر يمكنه أن يخبره بثقة أنّه خرّيج جامعة أنشاص الحربيّة في الجزائر والتي تلقّى فيها بعض التدريبات قبل خروجهم من لبنان. ثم إنّ الصفّ السادس في ذلك الزمن كان يعادل الثانويّة الآن. لولا هذا القصر الذي ورثه من والده الذي لم يره يومًا، لكان الآن بمرتبة أخرى.

أبو عاطف كان صديقًا لفيصل في عمان. فيصل كان طويلاً، لا أحد يعلم من أين جاء بهذا الطول البعيد عن جينات الأسرة المكوّنة من خمسة عشر طفلاً، أنجبها أبوه من زوجتيه فاطمة وتفيدة، ليموت في سنّ الأربعين بجلطة دماغيّة، أورثها لمعظم أولاده لاحقًا. أمّه فاطمة كانت صبيّة في السابعة والعشرين، وهو كان في بطنها حين مات أبوه.

لم يستطع المشي حتى سنّ الثالثة. قالوا لأمّه ابنك «مكسح». يومها وضعته سميرة وإفتكار في بقجة الخضار ودارتا به على بيوت الجيران والمحالّ في سوق البصل وهما تغنّيان «طعموا المكسح تيمشي»، فكان الناس يضعون له حبّة خيار وشقفة بقلاوة وملبّس عقضامة وجبنة بيضاء وقطعة تمريّة، فيأكلها كلّها قبل الوصول إلى زاوية تتمكّن بها الفتاتان من مشاركته في الطعام، ممّا كان يزيد من وزنه ويؤخّر من فرصه في المشي. هو لا يذكر الأمر لكنّ إفتكار

التي تكبره بثلاث سنوات تردّد عليه القصّة كلّما رأته. هو يذكر شيئًا مشابهًا لتلك القصّة أيّام العيد، حين كان أولاد الحوش يتجمّعون للنزول في جماعات على «السوق نازل»، ويدورون على المحالّ والمنازل ليلة العيد فيضع لهم الكبار في محافظهم القماشيّة المخاطة على يد أمّهاتهم، الحلويات والمأكولات، وأحيانًا إن حالفهم الحظّ، بعض الفلوس.

لكنّه صار شابًّا نحيلاً بشعر أسود ناعم تصطفّ فتيات مخيّم عين الحلوة لمشاهدته في الصفّ الصباحي. كان قائدًا للكتيبة وهو في العشرين من عمره. صحيح أنّها كانت صدفة أن يصبح قائدًا، ولولا استشهاد فيصل الذي منحه نجمتين على كتفه لبقي عنصرًا لفترة طويلة من الزمن، إلّا أنّه أثبت أنّه قادر على أن يكون قائدًا. وقد طوّر أساليبه في التحرّي والقتال والاشتباك والتحقيق.

أبو عاطف الوحيد الذي يذكر قصّة النجمتين لأنّه الوحيد الذي يعرف فيصل حين كان قائدًا للصاعقة في الأردن. كان بطلاً في التايكوندو ودرّب أوائل الفدائيّين الذين كان ينسلّون من الضفّة الأخرى ومن كلّ مكان إلى عمان ليصيروا فدائيّين، كما كان واحدًا ممّن أسّسوا للقواعد الارتكازيّة في نابلس حين استقرّ في أحد الأحراج وصار يدرّب بعض الشباب الذين جاءوه لأسباب مختلفة ليصبحوا فدائيّين.

لم يعرف فيصل يومًا كأخ، عرفه دومًا من خلال نواح أمّه المستمرّ عليه، فكان يحقد على ذلك الغائب الذي لا تذكر أمّه أحدًا سواه، رغم أنّه صار يضع في جيبها نصف دينار شهريًّا ولا

يرسل لها ذلك الغائب شيئًا.

وحتى عندما هرب إلى الأردن وانضمّ إلى المنظّمة، لم ير فيصل سوى بضع مرّات في معسكرات التدريب، ومرّة في بيت إفتكار في وادي الحدادة حين نشأ بينهما شجار على قصّة شعره التي قال عنها فيصل إنّها للهيبيّين الصيّع. في الليل جاء الأردنيّون واقتحموا بيت إفتكار للبحث عن فيصل الذي كان قد غادر.

كان من الممكن أن يصير كهربائيًّا مشهورًا. كان بارعًا في تمديد الأسلاك وإنارة البيوت والمحالّ، الأمر الذي كان سيجعل منه واحدًا من أصحاب رؤوس الأموال، مقارعًا بذلك صديقيه ناجي العالول وياسر المصري اللذين لم يكونا يفكّران طويلاً فيما يجب أن يطلباه في القهوة كما كان عليه أن يفعل.

يوزّع أبو عاطف الورق، أربعة عشر كرتًا على اللاعبين الأربعة، في العادة أبو النصر يفوز أكثر من الآخرين، مجدي يفوز أحيانًا أمّا هو فيفوز دائمًا. ورغم أنّ أبا عاطف يعلم ذلك جيّدًا فإنّ ذلك لا يمنعه من تجميعهم للعب الورق في هذا الوقت في المكتب، حيث يأتي بعض الرجال هربًا من أطفالهم ونسائهم اللواتي يكرّرن على الأغلب قصّة واحدة في العطلة الصيفيّة وهي السفر لزيارة أهلهم في لبنان أو الأردن أو مصر، فيهرب الرجال تفاديًا للتفكير في تفاصيل الموضوع.

كما يأتي آخرون لفتح موضوع لا يمكن فتحه في الصباح مع رئيس الجهاز، الذي يجلس هو أيضًا في مكتبه، ويجلس حوله لفيف من المريدين الذين لا يمتنعون عن ذمّ فلان وكتابة تقرير عن

علّان لنيل الرضا أو تمرير طلب لسلفة ماليّة أو مهمّة عمل دون المرور عنه هو كمسؤول مالي.

يعرفهم واحدًا واحدًا، يمشي الواحد منهم ببطء متجاهلاً النظر في عيون الآخرين، وإن سألهم السكرتير ما هو الموضوع الذين يودّون طرحه، يقول الواحد منهم عمل خاصّ، وهو ليس أكثر من نميمة قد تفضي إلى توقيع وقد لا تفضي، بحسب حالة المدير المزاجيّة ذلك اليوم، فهو أيضًا لديه زوجة وأولاد يريدون التصييف في مكان ما.

ذلك اليوم قال أبو عاطف الجملة التي كان ينتظرها الجميع منذ مدّة وهي أنّ أمّ عاطف ستطبخ الملوخيّة والبامية والجميع مدعوّون. نظر إليه وقال: «طبعًا أنت بتجيب البنات».

أمّ عاطف غزّاويّة أصليّة تعرف كيف تطبخ الملوخيّة والبامية بدقّة الثومة والكزبرة والكثير الكثير من الفلفل، وإن كان المزاج رائقًا ستعدّ التبّولة والكبة النيّة على الطريقة اللبنانيّة. هذا أقصى ما يمكن أن يحلم به المرء الآن.

فاز أبو النصر ذلك اليوم، لكن ما كدّره فعلاً هو رؤية عوني يصعد الدرج باتّجاه المدير وهو يعرف تمامًا ما سيفعله هناك.

عاد إلى البيت الساعة الواحدة ليلاً بعد أن قرّر أبو عاطف ذلك. وهو على الأغلب سيعاقب بالنوم على الكنبة تلك الليلة. المهمّ أن لا تلغي أمّ عاطف العزومة.

في السابق كان يدخل البيت في الواحدة ظهرًا ولا يخرج منه

حتى صباح اليوم الثاني، لكنّه تعب من لعب دور الأب المثالي، فالفتاتان غريبتان عنه أكثر من كلّ الناس، ورغم مرور سنة على وجودهما معه فإنّ كلّ شيء فاته ليكون أبًا لهما، وهو لا يعرف إن كان يستطيع أن يعتني بمخلوقات بهذا الحجم هو الذي لم يعتن به أحد منذ سنّ السادسة عشرة.

ورغم أنّهما لم تريا أمّهما يومًا فقد ورثتا عنها كلّ شيء: المشية المتراخية، الصوت الممطوط المغناج عدا الصفات الجسديّة التي تتطابق معها. لكنّه سيفعل كل ما بوسعه حتى لا تتحوّلا إلى نسخة متطابقة عن أمّهما وأختها سلمى. وضع المفتاح في الباب ودخل البيت المظلم تمامًا.

يدخل غرفة الفتاتين برأس يدور من فعل قناني البيرة السبع التي تجرّعها الواحدة تلو الأخرى. يقترب من سرير الفتاة الصغيرة. يحدّق فيها. تنام دون أن تشدّ على جفنيها بينما ينعكس ضوء القمر من النافذة مظهرًا فخذيها المفتوحتين أسفل قميص النوم، تتلألأن بيضاوين مكتنزتين. أصابته رؤيتهما هكذا بعصبيّة شديدة، وقرّر أن يمزّق قميص النوم الذي تلبسه صباحًا.

دخل غرفته. خلع عنه كلّ شيء ونام عاريًا فوق سريره الواسع الذي لا تنقصه سوى امرأة. وشخر.

تفرد أمّ عاطف بمساعدة زوجة ابنها التونسيّة منية السفرة، التي تحتوي على كلّ شيء، فعدا الملوخيّة الناعمة والأخرى الخشنة طبخت أمّ عاطف أيضًا الملوخيّة الورق المحوّسة بقطع الدجاج المفسّخ وحبّات الثومة الكبيرة على الطريقة الشاميّة، فأبو النصر لا

يأكل الملوخيّة إلّا بتلك الطريقة. أمّا البامية فالجميع يتّفق عليها بالبندورة وشقف لحمة الخاروف، كذلك كانت السفرة مزيّنة بجاط كبير من الحمّص بطحينة المصنوع في البيت والذي لا يعرفه التونسيّون كما لا يعرفون كلّ شيء مصنوع بمشتقّات الطحينة، يجاوره جاط آخر من البابا غنوج والفتّوش. لم يحضر أحد زوجَه فمثل هذه العزائم مخصّصة للرجال فقط، هو الوحيد الذي يحقّ له الإتيان بالبنات لأنّه بلا زوجة.

أخذت منية الفتاتين إلى غرفة الجلوس حيث كانت مرام ابنة أبو عاطف تتابع حلقة «ميغايفر» على قناة M6. مرام تدرس في مدرسة تونسيّة وهي بذلك تحظى بفرصة دراسة اللغة الفرنسيّة بينما تدرس الفتاتان في مدرسة القدس التي تتّبع المنهج الأردني. تجلس مرام غير عابئة بوجودهما، ويبدو عليها الضيق لوجود هذا العدد من الرجال في المنزل. كانت تتأفّف كلّما مرّت أمّ عاطف من أمامها بينما تهشّ أمّ عاطف عليها واضعة إصبعها على فمها بأن تصمت، لكنّها تبرطم كلامًا من قبيل «بعدين معه ومع صحابه»!

يارا لم تعرها انتباهًا وجلست عاقدة رجليها وتهزّ قدمها في الهواء بما أنّ أباها لم يكن هناك ليمنعها من ذلك. الصغيرة تحاول قدر المستطاع أن لا تتحرّك من مقعدها، فقد جاءت جلستها مقابلة لجلسة والدها تمامًا، وكانت ظاهرة له من حيث يجلس في غرفة الضيوف.

مرام ذات شعر طويل وملولو ولها غرّة قصيرة تدوّر وجهها تمامًا كتلك التي لمذيعة قناة mbc التي قالت يارا إنّها ستقصّ مثلها. أكلتا الصحن الذي وضعته لهما أمّ عاطف بينما لم تمدّ مرام يدها

على صحنها وقالت لأمّها التي طلبت منها أن تأكل «أنا قلتلك بدّي أروح عالبحر اليوم، شو هالعطلة الزفت»؛ لكن أمّها رجتها بهدوء أن تخفض صوتها، وقالت إنّهم سيذهبون إلى المرسى غدًا وسيفعلون كلّ ما تريد. كانت الصغيرة تنظر إلى ذلك الحوار وتقول: «كلّ شيء لأنّ لها أمًّا: أم أمّ. لو أنّ لي أمًّا لكانت حياتي أسعد شيء في الدنيا. لو كانت لي أمّ لقلت لها إنّني لا أحبّ البامية وأفضّل الملوخيّة، لو كانت لي أمّ لقلت لها عن بقعة الدم الموجودة في كيلوتي. لو كانت لي أمّ لشكوت يارا لأنّها ضربتني صباحًا. لو كانت لي أمّ لجعلت شعري ملولو ووضعت عليه الليمون وزيت الزيتون فيصبح «كيرلي»، لو كانت لي أمّ لرفعت رجلي على الطاولة وأنا آكل البوشار، لو كانت لي أمّ لصرت أجمل فتاة في المدرسة».

بعد أن فرغوا من الطعام نادته أمّ عاطف لتتكلّم معه في موضوع على انفراد، وانضمّ إليهما أبو عاطف لاحقًا. تحدّثت معه كأنّ الفتاتين ليستا في الغرفة نفسها. قالت أمّ عاطف إنّ رسالة وصلتها من بيروت من جدّة البنات، وأنّ الرسالة ملأى بالأشواق والرجاء لرؤية الفتاتين. كانت أمّ عاطف تتكلّم بكلّ عطف وتقول بين كلمة وأخرى «حرام»، وكان هو صامتًا ويدخّن فاتحًا رجليه وواضعًا يده على ركبة رجله اليمنى. هذا الموضوع حفّز آذان الفتاتين على السمع. إنّه الموضوع الذي لا يتكلّم فيه أحد. إنّه الموضوع الذي لا يجرؤ أحد على ذكره. هو قال بحزم: «أنا مش مانع البنات عنهم، البنات ما بدهم أمّهم، ورجاء ما حدا يذكر الموضوع تاني مرّة».

أكمل الجلسة مكدّرًا، ثم نادى الفتاتين بحزم ورحل قبل الجميع.

كانت يارا مصمّمة ذلك المساء، ورغم كلّ المحاولات التي قامت بها أختها لحثّها على أن لا تفعل، فقد كانت مصمّمة على الأمر. جلس على الصوفا بعد أن استيقظ من قيلولته المقدّسة، كان يبدو مرتاحًا وهو يتابع مسلسل المهمّة المستحيلة باللغة الفرنسيّة التي لا يفهمها. جلست يارا على حافّة الصوفا الأخرى وهي تنظر إليه من حين لآخر، متحفّزة للقول. وفي عينيها نظرة تقول: «للخرة كلّ هذه الحياة إن لم أقل ما أريده الآن»!

يعرف تلك الجلسة التي توحي أنّها ستفتح موضوعًا تخشى فتحه. قال لها: «أيوه شو في»؟

ـ ولا شي.

ـ احكي بقول.

ـ ولا شي. فش اشي. قالت وهي تبتسم لكي يستحثّها أكثر على القول.

ـ أنا اللي بعرفك مطلعك من هون (ويشير إلى عضوه).

تنظر إلى أختها الجالسة على الكنبة الصغرى، والتي تشير لها بحاجبيها أن لا تفعل، لكنّها في النهاية قالت: «بدّي أقصّ غرّتي».

بلع الجميع ريقهم إلّا هو. عدل من جلسته وعقد حاجبيه وقال: «شو»؟

علمت الفتاة أنّها ارتكبت خطأ فادحًا. يبدو أنّ مزاجه كان معكّرًا أكثر من اللازم، لكن من أين لها أن تعرف ومزاجه يتقلّب دون أن يفهم أحد السبب. لكنّها رغم ذلك أصرّت: «بدّي أقصّ غرّتي».

ـ إنت بدّك تربّيلي قرون.

ـ شو حكيت بدّي أقصّ غرّتي.

ـ أنا فش عندي بنات تقصّ غرّتها.

ـ مكلّ الناس بتقصّ غرّتها.

ـ إذا كلّ الناس شراميط بدّك تصيري شرموطة.

ـ أنا مش شرموطة.

ـ تردّيش عليّ.

لكنّ الفتاة لم تهدأ. قرفصت فوق الكنبة في مواجهة كفّة يده التي أمسكت بشعرها ودوّرته في الهواء. طلب من الفتاة الأخرى أن تذهب لتحضر «القشّاطة»، وهو عادة ما يطلب منها ذلك في مثل هذه المواقف لإخافة يارا. أطاعته وهي تبلع مجموعة من الغصّات ملأت حلقها. مرّت من قربه خائفة أن يطالها شلوط طاير في الهواء. أحضرت القشّاطة ذات العصا الخشبيّة التي وضعها بجانبه على الكنبة. قال ليارا: «بكسّر القشّاطة على جنابك إذا بتحكي بدّك تقصّي غرّة تاني مرّة». لكن يارا لم تهدأ، وظلّت تبكي وتكزّ على أسنانها. ثم طلب منهما أن تحضرا كلّ الهدايا التي جلبها لهما: (ساعة سكواتش بمرابط مطّاطيّة يمكن تغييرها، وبنطال لي كوبر

أخضر وحذاء توب سايدر). أحضرت الفتاة الصغيرة كلّ ذلك بينما لا تزال يارا تنفث الغضب على الكنبة وهو يدخّن من سجائر الدنهيل العريض واضعًا يده على ركبته وهو يحاول أن يجد طريقة لكسر شوكة هذه الفتاة الوقحة التي تشبهه لدرجة الغضب.

«الحسنة لواحد أمّا السيّئة للجميع»، هكذا كان على الفتاتين أن تدفعا ثمن الخطأ الكبير الذي اقترفته يارا. ضربهما حتى تعب، ثم جرّهما إلى الغرفة، يارا تبكي بينما تخفّف عنها الصغيرة التي نهرتها يارا لأنّها جبانة ولم تقل إنّها هي أيضًا تريد أن تقصّ غرّتها.

خرج من البيت متّجهًا نحو المكتب. في الطريق شاهد فتاة وصبيًّا بعمر يارا يقبّل أحدهما الآخر مقابل «البساج». مشى وهو يقنع نفسه أنّه على صواب، وأنّ عليه أن يضيّق عليهما الخناق، فإن سمح لها بأن تقصّ غرّتها الآن فإنّها لاحقًا ستطلب أن تذهب إلى «البساج» مع صديقاتها، ثم ربّما تريد أن تخرج مع شابّ، ثم تصبح شرموطة.

لم يكن يرغب في لعب الشدّة اليوم. «هزّت بدني الله يهزّ بدنها»، قال لأبو النصر الذي ضحك على الموضوع بشدّة، الأمر الذي أغضبه. قال أبو النصر إنّ كلّ الفتيات يقصصن غرّاتهنّ، وأنّ بناته السبع يقصصن غرّاتهنّ فوق المغسلة كلّ أسبوع، وأنّ أمّهنّ تفعل لهنّ ذلك أحيانًا للتوفير.

حين عاد إلى المنزل الساعة الواحدة صباحًا، دخل إلى غرفة الفتاتين. قال ليارا النائمة على سريرها بعينين مفتوحتين: «في صالون شعر في شارع المنزه التاسع باخدك بكرة»، فأجابته فرحة:

«كمان هي بدّها تقصّ غرّتها»، وأشارت إلى الصغيرة التي تشدّ على جفنيها بقوّة.

في الصباح اصطحب الفتاتين معه إلى المكتب. مشتا خلفه في شارع نهج الحكّام الملآن بالڤيلّات الصغيرة المبنيّة من الطوب الطيني، تحيط بها الياسمينات العراقيّة والدمشقيّة التي بدت ناشفة قليلاً مع حرارة الصيف، لكنّ الرائحة لا تزال تغرق الشارع.

لم تكن الحرارة قد ارتفعت بعد، وكان المشي في ذلك الشارع مع علمهما أنّهما اليوم ستتمكّنان أخيرًا من قصّ شعرهما يزيد من حماسة الموضوع. لم يكن قصّ الشعر في عمان حدثًا مهمًّا إلى هذا الحدّ، فقد كانت سهى تتدرّب على شعورهما لتتعلّم القصّات الجديدة التي تقصّها أمّ جوني للزبائن، ما جعل شعورهما قصيرة دائمًا، ولم تطل إلّا حين عاشتا بتونس منذ عام، الأمر الذي لن يعجب عمّتهما إفتكار التي ترى أنّ الشعور الطويلة ليست للفتيات في هذه السنّ، وأنّ عليهما قصّ شعورهما ليبتعد عنها القمل والسيبان.

هو أيضًا كان سعيدًا، فقد آلمه أنّه ضرب يارا لموضوع كقصّ الغرّة، وشعر بأنّه يقوم بفعل عظيم وهو يجعل الفتاتين فرحتين، وبذلك يثبت لنفسه أنّه الأب المثالي الذي ضحّى ليربّي بناته، ولم يتزوّج طيلة الخمس عشرة سنة الماضية لأجلهما، وليثبت ذلك أكثر اصطحبهما إلى المطعم اللبناني لتناول فطور معتبر هناك، حيث الخبز العربي والفول المدمّس والحمّص والفلافل.

لا يمكن تحديد ما يتناوله التونسيّون على الفطور، وأغلب

الظنّ أنّهم يأكلون السمك المحشي بالبيض المسلوق مع الباغيت، فهم يأكلون السمك في كلّ الأوقات ولا يعرفون الحمّص أو اللبنة أو الفلافل، الأمر الذي يثير العجب.

تناولوا فطورًا دسمًا أثقل معدتهم وأخّره عن المكتب، الأمر الذي لا يهمّه كثيرًا، ففي العادة هو أوّل الواصلين، وبالتالي يحقّ له تأخير يوم واحد بهذه المناسبة.

تشعر الفتاتان في المكتب بأنّهما من الشخصيّات المهمّة، فالجميع يدلّلهما في محاولة للتأثير عليه. أحضر لهما أبو أحمد شايًا بالقرفة وبه بعض الفستق. قال الأب لهما ممازحًا: «أوعكم تسلّموا عليه بشحبركم»، وهو يشير إلى لون بشرته الأسود، فضحك أبو أحمد وسلّم عليهما نكاية به فضحك الجميع. جلستا في مكتبه الذي يوجد فيه أيضًا مكتب أبو النصر، ويطلّ على الحديقة التي تحيط بالمكتب الذي هو عبارة عن ڤيلّا بيضاء ذات شبابيك حديد واسعة زرقاء اللون ويتكوّن من طابقين وفيه كثير من الحمّامات. مكتبه في الطابق السفلي يمتلئ بملفّات زهريّة اللون بحوافّ حديديّة. الجميع يدخلون ويخرجون من المكتب، في البداية يبدأون بملاطفة الفتاتين ثم يدخلون في نقاش جدّي لا ينتبه معه أحد لوجودهما، وكان هو يردّ عليهم بشيء من الجدّيّة أحيانًا، والمزاح أحيانًا أخرى، ويبدو مهمًّا وهو يضع السيجارة بين شفتيه بطريقة مرتخية، وينفث الدخان من حين لآخر.

دخل عليه عوني، وبعد أن سلّم على الفتاتين وألقى عدّة نكات عن الختيار والشفايف، لم يضحك عليها أحد سواه، أخرج من جيبه ورقة وقال له: «هي كتاب موقّع بالنسبة للمهمّة». كانت الورقة

موقّعة من مدير الجهاز وتقضي بصرف مبلغ خمسمائة دولار كإعانة عاجلة.

«كيف جبت هالورقة يا مزبزب»، قال وهو يرميها على المكتب. ردّ عليه عوني بصوت خفيض: «يا أخ أبو السعيد هي كتاب موقّع وخلص».

كان يشعر بالغضب الشديد، فهو ليس حاملاً لمفاتيح الخزنة في هذا المكتب فقط، ولا تقتضي مهمّاته شراء القهوة والشاي وتوزيع الرواتب وشراء المكاتب الجديدة، ولو كان بإمكانه لحلّ مشاكل الناس جميعًا، لكنّه هنا من موقعه ومن القرارات التي يتّخذها، هو أمين على أرواح الشهداء الذين يموتون في فلسطين والمعتقلين داخل السجون واللاجئين في المخيّمات، هو أمين على أموال الثورة، وإن كان المدير لا يقدّر ذلك، فإنّ عليه أن يعلم أنّه لم يناضل عمره كلّه ولم يجابه الرصاص الذي كان يذيب الإسفلت على طريق المطار في بيروت، ولم يتغرّب في إسبانيا وتونس ليتلقّى منه الأوامر، هو الذي كان تحت إمرته في مخيّم نهر البارد بعد تخرّجه في جامعة بيروت العربيّة، وكان هو من يصدر الأوامر.

قال لعوني إنّه لن يصرف المهمّة. وجلست الفتاتان خائفتين من الصوت الذي هزّ المكتب وجمع عددًا من الموظّفين على الباب.

بعد قليل جاء أبو أحمد وقال له: إنّ المدير يريدك. «لحقت وصّلتلو الخبر»، قال لأبو أحمد الذي حلف على أولاده أنّه لم ينقل شيئًا، لكنّه يعرف أنّ عيون المدير كثيرة وليس أبو أحمد وحده

ناقل الأخبار. لكن لا يهمّه. نهض عن كرسيّه وهو يبرطم «على جثّتي بنصرفلك المهمّة يا عوني»! حاول أبو النصر أن يهدّئه، قال له: «يا زلمة يتطبلوا ببعض هي مصاري أبوك»، لكنّه ثار عليه وقال: «هاي مصارينا كلّنا». كان يشعر بالفخر والعظمة لموقفه، مقابل موقف أبو النصر المتخاذل، وكان صوته يعلو ليسمعه كلّ من في المكتب.

الأغنيات تصدح في رأسه وهو يصعد الدرج نحو مكتب المدير: «فدائيّة فدائيّة فدائيّة ثورة ثورة شعبيّة». «أنا صامد صامد أنا صامد إن سرقوا بلادي أنا صامد». «أنا يا أخي أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيّع والمكبّل وحملت رشّاشي، لتحمل بعدي الأجيال منجل».

يمشي على أنغام تلك الأغنيات وتلحق به جمانة التي تريد الذهاب إلى الحمّام ولا تجرؤ أن تقول له ذلك في ثورة غضبه. لم ينتبه لوجودها، مشى باتّجاه مكتب المدير وطلب من السكرتير أن يخبره أنّه هنا. كان السكرتير مشغولاً فطلب منه الانتظار قليلاً لكنّه صرخ في وجهه وقال: «بقولك إحكيلو إنّي أجيت» فسمع صوتًا من الداخل يقول: «دخله دخله لأبو المشاكل».

دخل ودخلت خلفه الفتاة التي لم تعرف ماذا تفعل غير ذلك، بقيت هي عند الباب دون أن ينتبه لوجودها أحد.

في المكتب الواسع كان المدير يجلس خلف طاولة مكتب كبيرة وخلفة صورة لأبو عمّار بالأبيض والأسود وهو يسلّم على مجموعة من المقاتلين، كذلك كان يجلس على كنب جلدي بنّي

اللون رجلان بكرشين وصلعتين واسعتين وامرأة تضع حطّة حول عنقها وشعرها مصفّف إلى الخلف كالممثّلات.

اقترب أبو السعيد الذي صغر حجمه في رحابة المكتب الواسع. قال له الرجل الذي يشبه «كيفن كوستنر» في فيلم البادي غارد» لويتني هيوستن، قال له وهو ينظر إليه من تحت نظارته الكبيرة: «شو يا أبو السعيد بشوفك معلّي صوتك».

كان لا يزال واقفًا بين المقاعد الجلديّة، والأغنيات تنطفئ في رأسه الواحدة تلو الأخرى. قال بصوت لم تسمعه الفتاة من قبل: «لا مش معلّي صوتي»؛ فقال له المدير الذي يبدو مشغولاً بأمور أخرى أكثر أهمِّيّة: «لعاد شو في ليش صوتك طالع في المكتب؟».

كان تهيّأ لأن يقول، وكانت الكلمات تتجمّع في رأسه ويريد أن يقولها، أراد أن يقول له: «اسمع يا ولد. أنت كلّك قدامي ما بتسوى شربة مي، ومش ناسي أجريك اللي كانوا يرجّوا تحتيك من الخوف أيّام لبنان ومنعوك تقاتل زيّ الرجال، وهلأ جاي تعمل عليّ زلمة وتعطي مهمّة لفلان وعلتان عشان تلمّ حاشية حواليك مش على حساب الشغل والمصاري اللي بنودّيها لأسر الشهدا والمعتقلين» كان يريد أن يقول كلّ ذلك، في الوقت نفسه الذي رأى انعكاس صورة الفتاة الصغيرة على المرآة المزيّنة لواجهة المكتب خلف المدير، كانت تنظر باتّجاهه، إنّها هي الساحرة، التي تستطيع أن تخترق المرآة الآن فتنفجر إلى مئة شظيّة، وربّما تصل واحدة إلى عنق المدير فتفجّره، لكن حاجبيها كانا يرتفعان إلى الأعلى وهي

تحدّق في عينيه. إنّها تأمره، تقول له بلغة لا يفهمها أحد سواه: «لا تفعل»!

المدير قال: «اللي بطلع من عندي ما بيرجع، شو فهمت»؟

نظر نحوه. وضع عينيه في عينيه للمرّة الأولى منذ دخل المكتب وقال: «أمرك سيّدي»!

# يارا

## ١

كلّ ما يتحدّث عنه الآن هو العودة إلى فلسطين، يريد أن يذهب إلى مزبلة في نابلس على أن يكون في أيّ مكان آخر. لكن أنا لا. أنا أريد أن أبقى هنا حيث أستطيع أن ألمح محمّد يمرّ من الشارع الخلفي لبيتنا، أو يجلس قربي في الحصّة.

يُحضر أناسًا ليشتروا أثاث المنزل، ويريد أن يرسلنا إلى بيت عمّتي في عمان، حتى تتّضح الأمور ونعود إلى فلسطين. والغريب أنّ كلمة «نعود» لا تتّفق أبدًا مع حالتنا أنا وجمانة، فنحن لم نكن يومًا هناك لنعود، وأنا لا أفهم لماذا يجب علينا أن نشعر كما يريد لنا الآخرون أن نفعل. فأنا لا أعرف عن فلسطين سوى ما يقوله الأستاذ خيري أستاذ التاريخ وهو يحاول أن يعلّمنا «بالكندرة» شكل خريطتنا، ويثور على كلّ من يرسم إعوجاجًا غير مقصود لأيّ خطّ من خطوطها غير المستوية، وما تبثّه نشرات الأخبار التي علينا أن نحضرها كلّها، وعمّاتي وأعمامي، ممّن كانوا يزورون عمّتي في

الصيف، فيضيق علينا البيت، الضيّق أصلاً.

مرّة أخرى عليّ أن ألملم أشيائي، وعليّ أن أترك أكثر من نصفها، وعليّ اختيار الأهمّ من المهمّ، وأنا أريد كلّ شيء. لا أريد أن أترك شيئًا لأحد. لا الصور التي خلف الباب التي جمعتها بصعوبة من المجلّات والصحف، ولا كتب الدراسة التي أعشق تجميعها، ولا أحذيتي القديمة، ولا مخدّتي وفراشي وشراشفي. أريدها كلها لأنّها لي.

محمّد يقول إنّه سينتقل هو أيضًا إلى فلسطين، لكنّه لن يكون في المدينة ذاتها. ورغم أنّنا تواعدنا على اللقاء، وكتب لي على دفتر الجغرافيا «سأحبّك دائمًا»، فإنّني أعلم أنّنا لن نفعل، وسيحدث معنا ما حدث مع ليلى التي تبخّرت حين أتينا إلى تونس.

تحاشيت النظر في عينَيْ أبي، وهو يعدّ لنا ساندويشات البيض المسلوق في المطبخ. أضع الساندويشة في الحقيبة دون أن ينتبه لوجودي. منذ مدّة لم يعد ينتبه لشيء، فهو يعلم أنّه قريبًا سيودعنا عند عمّتي من جديد. ينظر إلينا على أنّنا أشياء موقّتة وستنتهي قريبًا، وهذا ما يجعله يتجاهل غرّتي التي أرفعها اليوم أطول من العادة، لكنّه لا ينسى أن يصرخ على جمانة التي تنتظرني قرب الباب جامدة كالصنم. لا يزال عقابها مستمرًّا منذ ثلاثة أيّام بسبب تلك اللعينة لطيفة، التي قالت له إنّ جمانة أخبرتها بأنّها سمعت صوتًا في الليل يأتي من حيث تنام لطيفة في غرفة الجلوس، وسألتها إن كان أبي قد استفاق ليلاً أم لا؟ كنت أعلم أنّ لطيفة التي تنام في بيتنا أحيانًا بعد تنظيفه فتّانة لعينة، ولم أفهم كيف تجرّأت

جمانة على سؤالها ذلك السؤال.

في المدرسة، الجميع يتكلّم عن العودة. زينب المتحمّسة للأمر تتكلّم كأنّها أبي. هي ستنتقل إلى غزّة لأنّ والدها من هناك، أمّا هانوي فستستقرّ في طولكرم على الأغلب عند منزل جدّها، بينما ستذهب ليندا إلى بيروت مع والدتها التي لن تعود إلى فلسطين لأنّها ترفض ذلك. حتى الآن لا أعرف أين سيكون مصيرنا أنا وجمانة، فأبي يقول إنّه سيكون في غزّة بينما نحن سنكون في نابلس عند أحد الأقارب، هذا بعد أن ننتقل إلى بيت عمّتي في الفترة الأولى، حتى يستقرّ أبي في مكان ما.

محمّد يقف قرب شادي وفادي في الساحة الإسمنتيّة. أتجاهل وجوده، لكنّه يرفع يده باتّجاهي، فأتظاهر بالمفاجأة لرؤيته وأسلّم عليه. الأستاذ مؤيّد يبدأ الإذاعة المدرسيّة بحركات الصباح (استعدّ ـ استرح ـ إلى الأمام ـ إلى الخلف) ثم يطلب من سلامة أن يقف في طابور الصفّ السابع وليس التاسع، لكن سلامة (وهو الطالب الأكثر رسوبًا في المدرسة) لا يعيره انتباهًا، ثم تنشأ مشكلة بالأيدي بينه وبين الأستاذ خيري ينهيها صوت الأستاذ فتحي مدير المدرسة الذي يتحضّر لإلقاء خطبته. كانت خطبة الأستاذ فتحي حول عودتنا إلى فلسطين، والفرح والبهجة والسعادة التي لا أشعر أنا بها.

الجميع يتكلّم عن الأمر على أنّه أمر حتميّ، لكنّني غير مصدّقة، وأشعر بأن الأمر كابوس سينتهي قريبًا.

في الصفّ يجلس محمّد قربي. أضع حقيبتي قرب حقيبته في الوسط، بينما تشدّ هانوي ذراعي من الخلف لتخبرني عن المجلّة

الجديدة التي اشترتها من البساج وصورة ويتني هيوستن الكبيرة الموجودة فيها.

ليندا تفتح الكتاب وتدرس لامتحان الرياضيّات في الحصّة القادمة. عليّ أنا أيضًا أن أفعل مثلها، لكنّني مهما درست فهي ستحرز علامة أفضل منّي، لكن أنا أخفّ دمًا منها، هذا ما يقوله الجميع وأستطيع أن أجعل الجميع يضحك، كما جميع الأولاد يرغبون في الكلام معي، بينما هي لا تفعل شيئًا سوى الدراسة ليل نهار، وربّما تحصل على علامات كاملة في التوجيهي وتدخل الطبّ كما تريد.

أنا أريد أن أدرس صحافيّة، لكنّني أعلم أنّ أبي لن يوافق، فهو يعتبر الصحافيّات نساء غير شريفات، وهو يريدني محامية، الأمر الذي لن يحدث أبدًا.

في العادة تتنافس زينب وهانوي على طول «البف» الذي تستطيع أن تصله الغرّة وتحاولان قدر الاستطاعة أن تصلا به أبعد مسافة في الفراغ، بالاستعانة بالجلّ والليمون والدبابيس. ومهما حاولت أن أنافسهما في طول الغرّة فلن أستطيع، أوّلاً لأنّ شعري أنعم بكثير من شعورهنّ، وثانيًا لأنّ أبي سيمسك بها ويخرّبها حالما يلاحظ الأمر وهو ينفّذ التفتيش الصباحي على ملابسنا. هو غالبًا لا ينتبه للخواتم التي أضعها في يدي، ولا للقميص الذي سأفتح زرّه العلوي من أسفل المريول الكحلي بعد خروجي إلى الباص. لكنّني هذا اليوم استطعت مجاراتهما ورفعت غرّتي أطول من كلّ مرّة.

هذا الأسبوع هو الأسبوع الأخير في الفصل الدراسي الأوّل، تليه الامتحانات ثم لا أحد يعلم ما سيحدث. المرّات الأخيرة التي سأضع بيننا الحقيبة ببطء ليلمس محمّد يدي ويحاول الإمساك بها بينما أسحبها أنا على الفور كأنّ سلكًا كهربائيًّا لسعني.

لا أعتقد أنّني أحببت محمّد إلّا حين عرفت بأمر عودتنا المزعومة هذه، رغم أنّه يرسل لي الرسائل منذ بداية الفصل. أحبّ أنّه موجود، ولا أريد أن ينتهي هذا الشعور بوجوده، ليس هو وحده فهناك اثنان، لا بالأحرى ثلاثة، إن احتسبنا صاحب الشرفة المقابلة لبيتنا الذي أطلّ عليه كلّ مساء من نافذة الغرفة. الآخر يسكن في الطابق العلوي في عمارتنا، وله أخ توأم تحبّه جمانة، أمّا الثالث فهو منصور من الشعبة الثانية الذي لا يجمعني به سوى نظرات متبادلة في الخمس دقائق. جمانة المتأثّرة بالمسلسلات المكسيكيّة تقول إنّ علينا أن لا نحبّ أكثر من واحد، رغم ذلك نتنافس أنا وهي على عدد المعجبين الذين تتفوّق هي بكثرتهم في العادة. أعتقد أنّ جمانة بدأت تراهق وهي في الصفّ الرابع، أي قبل أن نأتي إلى تونس، وهي منذ ذلك الحين لا تستطيع أن تكون بلا حبّ، ولديها قدرة هائلة على الهيام والعشق والبكاء من الاشتياق، الأمر الذي لا يحدث معي أبدًا، فأنا لا أتأثّر بمثل تلك الأمور ولا يمكن لأحد أن يهزّني.

لكنّني أحببت الحياة هنا، وتأقلمت مع مزاج أبي الذي كان يشبهني في الكثير من الأمور، وكلّ ما أعرفه أنّني لن أسمح لهم بتخريب حياتي مرّة أخرى، وهذا ما يجب أن يعرفه أبي ويقبله.

## ٢

فتح أبي باب الغرفة، تفوح منه رائحة مشروب قويّ. جمانة نائمة في سريرها الذي لا يفصله عن سريري سوى عرض الكومودينة. قال أبي وقد بدا عليه الحرج، إنّه يريد أن يسألني سؤالاً. كان يبدو مسكينًا تلك اللحظة، وحيدًا ربّما، ويحتاج إلى صديق. يفعل أبي ذلك أحيانًا، يأتي ويجلس قربي ويبدأ بمداعبتي وغرغرتي من أماكن لم يلمسها رجل من قبل، ثم يحدث شيء ما يقلب له مزاجه فجأة.

بعد سنتين من الحياة معه في تونس أصبحت قادرة على التكهّن بأفعاله، لكن ما يقلقني الآن أنّني لم أغلق النافذة، وقد يرى صاحب الشرفة الذي لوّح لي قبل أن يدخل أبي الغرفة بلحظات.

قال إنّه يريد أن يكلّمني في غرفة الجلوس، وقد بدا الأمر مخيفًا للحظة، لكنّني أحسست أنّه لا يريد أن يتكلّم فتسمعه جمانة.

جلس على الكنبة وبقيت واقفة، سحب سيجارة من علبة الدخان وأشعلها.

هل عرف بموضوع محمّد؟ ربّما فتّش غرفتنا ونحن في المدرسة فوجد قلم الحمرة الذي ألصقته أسفل رفّ الخزانة، لكنّه لن يحتاج إلى كلّ هذا التهذيب. لو أنّه عرف بأيّ شيء لكان هشّمني وانتهى الأمر.

بعد عدّة سحبات من السيجارة قال أبي ما يريد قوله مرّة واحدة. قال إنّ عمّتي أخبرته أنّني قلت إنّ أمّي كانت تأخذنا معها إلى بيت رجل حين تذهب لزيارة بيت جدّتي، أمّا سؤال أبي المحدّد فكان: هل حصلت تلك الزيارات قبل أو بعد إنجابها لجمانة؟

لم أعرف كيف أردّ على هذا السؤال، فمن جهة كانت هذه هي المرّة الأولى التي نفتح فيها موضوع أمّي، وقد بدا الأمر مغريًا لفتحه أخيرًا، ومن ناحية أخرى فأنا لا أذكر أنّني قلت ذلك لعمّتي، وإن كنت قد فعلت حين كان عمري ثلاث سنوات فلا بدّ أنّني نسيت الآن بعد مضيّ أربعة عشر عامًا على الأمر. كان يبدو أمرًا جنونيًّا أن يعبث أحد ما بذاكرة طفلة في الثالثة من عمرها. قلت إنّني لا أذكر شيئًا، ولا أذكر أنّني أخبرت عمّتي بهذا الأمر. سحب نفسًا جديدًا من السيجارة، ثم طلب أن أذهب إلى غرفتي فورًا. حمدت الله على الأمر، لكنّه أوقفني وأنا في منتصف الطريق:

ـ ليش الشبّاك مفتوح؟

ـ شوب.

ـ إن شا الله بتنخنقي بتسكريه أنا حكيت على طول.

ـ طيّب.

وضعت رأسي على الوسادة، وكنت أسمع حشرجة تأتي من حيث وسادة جمانة. لم أجرؤ على الاقتراب منها لأنّني سمعت صوت قدمَيْ أبي قريبة من الغرفة. أدرت رأسي إلى جهة النافذة وكان سؤال أبي لا يزال يقفز في رأسي.

كانت بيروت في رأسي صورًا وفلاشات مردّها ألبوم الصور الموجود في درج الكومودينة الخاصّة بأبي، الذي نفتحه بحرص شديد على إعادته كما كان، كلّما خرج أبي من البيت. أتذكّر فستاني الأحمر المزركش، وصورتي وأنا أقود درّاجة صغيرة بثلاث عجلات حول النباتات المزروعة في قواوير على البلكون. أذكر أنّني وقفت أحمي جمانة التي لم تكن قد بلغت السنة من عمرها حين هجمت عليها المرأة الطويلة التي أرسلنا أبي عندها بسيّارة أحد العناصر، لأنّ جمانة تبوّلت على شراشفها المخطّطة بخطوط برتقالية عريضة وهي تغيّر لها الفوطة. أذكر أنّ جمانة ظلّت تبكي في الطيّارة ونحن في طريقنا من بيروت إلى عمان، وكانت عمّتي تقرصها من جنبها لتسكت ولا تفضحنا مع المسافرين، وأنّ المضيفة أخذتها منها وصارت تطيّرها في الهواء فسكتت. يومها تمنّيت لو أنّني أنا التي أبكي لتفعل بي المضيفة ما فعلته بجمانة. كلّ شيء آخر مردّه قصص عمّتي، كقصّة السيبان الذي كان يسيل على جانبي وجهي من «خمخمة أمّي»، أو الهرمونات التي كانت أمّي تتناولها أثناء حملها بجمانة ممّا سبّب الشعر الزائد الذي يغطّي يدي جمانة ورجليها الأشبه بالرجال.

لماذ سألني أبي سؤالاً كهذا؟ هل يشكّ في أنّ جمانة ابنة رجل آخر؟ هل هي حقًّا كذلك؟ هي لا تشبهني في شيء، وسهى التي رأت أمّي عدّة مرّات تقول إنّها حتى لا تشبه أمّي.

أمّي التي لا أعرف إن كانت حيّة أم ميتة، متزوّجة مثلاً، ربّما لديّ إخوة لا أعرفهم، ولا أيّ معلومة وصلتني من حيث هي، المرّة الوحيدة التي سأل أحد ما من لبنان كانت جدّتي وليست أمّي التي تبدو كأنّها تبخّرت، أنا لا أريد أن أراها أصلاً، ولا أريد أن أسمع عنها شيئًا.

تقفز إلى رأسي قصّة زوجة عمّي ليلى: قبل غيابها النهائي عنّا، أرسلت تسجيلاً موجّهًا إلى عمّتي، وقد وجّهت نسخًا أخرى لابنها الذي كان صغيرًا وقتها، وإلى آخرين لا أعرفهم، سجّلت فيه صوت عمّي وهي تستدرجه ليقول إنّه لا بأس إن نامت مع بعض الرجال في السعوديّة حتى يجمعوا بعض النقود ويعودوا إلى فلسطين، فيسكنوا هناك إلى الأبد، ثم ختمت التسجيل بتوجيه كلمات إلى عمّتي وإلى ابنها تقول فيها: إنّ هذا التسجيل سيخرس عمّتي التي كانت تتّهمها بشرفها لأنّها طلّقت عمّي، الذي كان يريد أن يقوّد عليها لجمع المال، وليعلم ابنها حقيقة ما حدث معها دون أن تلوّثه عمّتي بأفكارها الشرّيرة.

كانت ليلى تزورنا في عمان وهي في طريقها لزيارة أهلها في جنين قبل أن تتطلّق من عمّي، تجلب أجمل الهدايا لكلّ فرد من أفراد العائلة. طبعًا كانت عمّتي تفتّش حقيبتها الكبيرة حالما تذهب إلى السوق، وتبدأ بعدّ الهدايا التي جلبتها لأهلها، وأحيانًا تسلبها بعضًا منها.

تجلس ليلى وسهى في الغرفة الخلفيّة، ونراقب أنا وجمانة ما يدور دون أن نثرثر، فوجود ليلى أمر مدهش ومثير، فهي تملك قصصًا مثيرة حول الرجال لم نكن قد سمعناها من قبل، تخبرنا كم تستطيع أن تتلاعب بهم فيفعلوا كلّ ما تريد.

تخرج سجائر رفيعة وطويلة بطعم النعنع من جيب حقيبتها، ثم تفتح التسجيل على أغاني راغب علامة، وربيع الخولي، وترقص رقصًا يشبه رقص شيريهان في فوازير رمضان. تبدأ بفكّ أزرار قميصها وتخلع ملابسها قطعة قطعة ونحن مسمّرتان لا نعرف ماذا علينا أن نفعل.

لم تكفّ عمّتي عن ذكر ليلى وعمّي الذي بدا طيّبًا خنوعًا لا يكشّ ولا ينشّ لولا ما سمعناه في التسجيل الذي بيّنت فيه ليلى أنّها أجبرته على تطليقها بضغط من قبل بعض معارفها في السعوديّة. هو لم ينكر ولم يؤكّد صحّة التسجيل، ولم يتكلّم مع أحد عن سرّ طلاقهما، لكنّه كان خائفًا من عدم تجديد إقامته في السعوديّة، وأن يعود خائبًا إلى فلسطين، وهو لا يملك فلسًا، وقد أخبر عمّتي أنّه لا يملك شيئًا رغم أنّها لم تصدّق ذلك.

احتفظت ليلى بابنها، لكنّها أودعته عند بيت أمّها في جنين بعد أن تزوّجت من لبناني يعيش في السعوديّة، بعد أربعة أشهر وعشرة أيّام على طلاقها. وأصبحنا نسمع إشاعات تروّجها هي، مفادها أنّها بالأصل لقيطة، وهي من بيروت، وأنّ أهلها وجدوها وربّوها في جنين. ولم أجد الصلة بين جنين وبيروت، لكنّنا كدنا نصدّق الأمر بعد أن بدّلت لون عينيها إلى اللون الأزرق، وصارت تتكلّم

بلكنة لبنانيّة بصحبة زوجها اللبناني الشابّ، كما قالت لنا سهى.

لقد اختارت ليلى لنفسها قصّة جديدة، قصّة فصّلتها على مقاسها، وكنت أخشى أن تكون لجمانة ذات القصّة يومًا ما.

في الصباح لم يذكر أحد شيئًا. جلسنا نحن الثلاثة على طاولة المطبخ نتناول فطورنا بعيون منتفخة قليلاً. دقّ الباب ونحن نأكل. اليوم الأحد ولا يأتينا أحد في العادة. نظر أبي من العدسة بعد أن طلب منّا عدم التحرّك. لم يكن يريد أن يفتح، لكن صوتًا من الخارج تكلّم بلكنة تونسيّة نعرفها جميعًا، قال: «افتح يا أبو سعيد أنا العربي تخلينيش نجيب الشرطة».

فتح أبي الباب بعد أن علا صوت العربيّ، الرجل النحيل والطويل جدًّا، والذي يسلّم علينا يوميًّا بوجه تملؤه ضحكة واسعة، تدلّ على الفرح برؤيتنا. وقف العربي في الباب محرجًا، لكنّه قال لأبي إنّه لا يستطيع أن يصبر أكثر وإنّه يعرف الأحوال، هذا هو الشهر الرابع الذي لم يدفع أبي فيه بدل إيجار البيت وعقد الإيجار تنتهي صلاحيّته نهاية الشهر، ولا يمكن تجديده دون إقامة سارية المفعول، وإنّه مضطرّ لإخلاء البيت آخر الشهر، وقد أخبره رسميًّا أنّ هناك من سيأتي ليعاين البيت بعد الظهر.

لم يكن الأمر بيد أحد، هذا ما عرفناه جميعًا، لقد أكّد مشهد العربي الذي لم يضحك في وجهي ذلك الصباح، أنّنا لن نبقى هنا طويلاً، وأنّنا سنرحل حتى لو رفضت ذلك.

يومها ذكر أبي عائلة عمّو نور وقال إنّه كان عليه أن يفعل ما فعله عمّو نور وينتهي من هذه الحياة المذلّة، لكنّه عاد وأكّد بعد

ثلاث دقائق أنّه لا يمكن أن يفعل ذلك أبدًا. كنّا نزور عائلة عمّو نور كلّ يوم أحد في حيّ المرسى. اختفوا فجأة عن الوجود. قال أبي يومها إنّ عمّو نور سافر إلى السويد، وطلب لجوءًا سياسيًّا له ولعائلته ولن يعودوا أبدًا. عرفت يومها كلمة هجرة، وهي كلمة تعني أنّها أمر لا رجعة عنه خاصّة لأمثالنا، كما قال أبي: فإن أنت تخلّيت عن القضيّة فهي ستتخلّى عنك أيضًا. كانت صدمة للجميع، فقد كنّا عندهم قبل يومين، ولم يخبرنا أحد بذلك. عاب أبي على عمّو نور الأمر، لأنّ لديه بناتًا وتربية البنات في دولة أوروبيّة أمر لا يجوز أبدًا، وشعرنا وشعر الجميع أنّ عمّو نور هرب، ورغم أنّ أبي تفهّم الموضوع، فقد قال إنّه لم يكن عليه فعل ذلك. عمّو نور كما قالت ابنته لبنى مرّة، كان يشكو من فقر أشدّ بكثير من الفقر الذي نعانيه نحن منذ توقّف راتب أبي عن تأمين حاجاتنا. قالت إنّ المشاكل بين أمّها وعمّو نور لا تتوقّف. ومرّة اشتعلت مشكلة بينهما ونحن موجودون، كاد عمّو نور الذي تمنّيت يومًا أن يكون أبي من شدّة لطفه، أن يضرب خالتو أماني بالمنفضة.

خرج أبي من البيت بعد أن حلق ذقنه ولبس ثيابه ببطء، كنّا ننتظر خروجه أنا وجمانة في غرفتنا على أهبّة الاستعداد لاحتلال البيت حالما يغلق الباب خلفه وفعل كلّ ما نريد. سمعنا صوت المفتاح يقفل الباب دون أن نسمع من أبي أيّ همسة، خرجت أنا أتفقّد الوضع، ثم لحقت بي جمانة تفتّش الغرف تفتيشًا إضافيًّا.

منذ سكنّا في هذه الشقّة ونحن نبحث عن الكاميرات وأدوات

التجسّس التي نظنّ أنّ أبي زرعها في البيت ليراقبنا، لم نجدها يومًا لكنّنا رغم ذلك لم نكفّ عن البحث، ونعلم أنّه يتقصّد أن يقلب حذاءه أو يضع شعرة عند درج الكومادينة أو يقفل باب الشرفة بزاوية معيّنة، ليعلم إن نحن عبثنا بشيء ما، أو خرجنا إلى الشرفة، لكنّه لا يعلم أنّنا نحن أيضًا طوّرنا أساليب مضادّة لأساليبه، وأصبحنا خبراء بالأمر. سألتني جمانة عمّا سألني إيّاه أبي في الليل، قالت إنّها سمعته يسأل إن كانت أمّي كانت ترى رجلاً ما قبل أو بعد ولادتها، صارت تلحّ على الأمر وأنا أقول لها إنّه لم يسألني عن ذلك وأنّه كان يسأل عن شبّاك الغرفة. أعلم أنّها ستفعل من الأمر قصّة كبيرة، فهي تحبّ لعب دور الفتاة الضحيّة والمسكينة المضطهدة من الجميع، وستؤلّف قصّة شبيهة بقصّة «سالي» من كثرة المسلسلات الكرتونيّة التي تحبّ متابعتها، وتبكي عليها بحرقة، ظلّت تسألني عن الموضوع ذاته طوال اليوم، فتشاجرت معها على التيشيرت الذي لبسته بالأمس وأنزلت عليه بقعة شكولاته، ولا أعرف كيف تفاقمت المشكلة فوجدتني أشدّ شعرها وأدفشها على الكنبة وهي تستفزّني ببكائها المتعمّد ومسكنتها المفتعلة، بعد ذلك تصالحنا ونحن نحضر فيلم الأحد على القناة التونسيّة، ثم جعنا فأعدّت لنا جمانة صحن بطاطا مقليّة، أكلناه بلحظات، وأيضًا تشاجرنا على الحبّة الأخيرة. كان يومًا طويلاً وماطرًا لم نستطع أن نقف فيه على الشرفة، لكنّني أمسكت بعصا القشّاطة وضربت بها السقف، فردّ عليّ سليم الضربة بضربتين وهذا يعني «عالسلامة» ثم ضربت ضربة تليها ثلاث ضربات وهذا يعني أنّنا وحدنا.

في الليل عاد أبي بينما كنّا ندردش أنا وجمانة فوق سريرينا. افتعلنا النوم وأدارت كلّ واحدة رأسها إلى الجهة الأخرى. دخل أبي الغرفة وجلب معه رائحة كريهة شممناها من فوق أسرتنا. فتح باب الغرفة، اقترب من سرير جمانة، هزّها من كتفها وقال: «الحقيني». تبعته جمانة دون جدال، وكنت أستطيع أن أشمّ رائحة الخوف من حيث أنا. أغلق باب غرفتنا خلفه. نهضت فورًا أحاول أن أسمع ما يدور في غرفة الجلوس من حيث يأتي الصوت. كنت أميّز هذا الصوت المرخي، خاصّة وهو يحوّل الراء إلى غين، قال إنّ معلّمة العلوم أخبرته أنّها حصلت على ١٦ من ٢٠ في الامتحان، ثم سمعت كلمة «اشلحي بنطلونك».

فتحت باب الغرفة دون وعي، صرخت دون أن يكون للكلمات أيّ معنى، قلت لجمانة التي كانت تقف وسط الغرفة مرتدية بيجامة موزيّة مفتلة ويظهر الذعر على وجهها: «أوعك تشلحي»! كان يبدو خائفًا منّي وهو يقول إنّه سيضربها على قفاها لأنّها لم تحرز علامة جيّدة.

«مش رح تشلح»، قلت له بإصرار وأنا أفتعل تحريك يديّ في الهواء لأدفعه لضربي. التقت نظراتنا في نقطة لا رجعة عنها، هو وأنا عرفنا أنّه لن يستطيع ردعي ولن يفعل لي شيئًا. أمسكت بيد جمانة كطفلة في الرابعة، مشيت بها نحو الغرفة وظلّ هو جالسًا على الصوفا دون أن يتحرّك. أغلقت باب الغرفة خلفنا، ظللنا واقفتين حتى سمعنا صوت باب غرفته يطرق. بكيت وبكت جمانة طوال الليل.

طالت تلك الليلة عند أبي ليوم آخر، لم يخرج خلالها من غرفته سوى ليدخل الحمّام، سمعناه يشهق هناك، ونظّفنا بقايا القيء الذي ملأ حوافّ كرسي الحمام عدّة مرّات.

بعد أقلّ من أسبوع من ذلك الأحد، شحننا أبي إلى عمان مرّة أخرى.



## آمال: الأمّ

### ١

لم يكن النهار قد انقشع بعد، فتحت عينيّ على يده التي تنكز ظهري بشدّة: «قومي»، ولم يكن القيام شيئًا أودّ فعله الساعة الخامسة صباحًا، لكن يده عادت لتنغرز في كتفي: «ملحقّة تنخمدي»!

«لماذا لا يستطيع أن يكون لطيفًا هذا الرجل؟». فكّرت وأنا أرفع جسدي الذي تضخّم، بتثبيت ذراعيّ أسفل جسدي، حسب نصائح جارتنا أمّ فخري، حول الطريقة المثلى لنهوض المرأة الحامل. لماذا لا يقول «مرسي» بدل «طيّب»؟ لماذا لا يتنحنح قبل أن يدخل الغرفة؟ لماذا لا يقول «شو بحبّك» بدل «ولا إشي»؟ كلماته تخرج من بين شفتيه الغليظتين كأنّها قنابل، في البدء قالت أمّي: «بكرا بتنجريه». ربّما كانت تقصد «بكرا بنجر عرضك».

حتى عندما أراد أن يتغزّل بي يوم رآني للمرّة الأولى في غرفة

الجلوس، في بيتنا في طريق الجديدة، قال: «نيالو اللي بدّو يوخدك». كان من المفترض أن تكون تلك كلمات غزل، لكن صوته الغليظ ولهجته الفلسطينيّة، وعدم قدرتي على تحمّل بسطاره الذي وسّخ سجّادة أمّي التي لا يوسّخها أحد، كلّ ذلك جعل وقع كلماته الغزليّة في أذني كأنّها وصلات شظايا تتساقط في غرفة جلوسنا. كأنّه يقول لي: «الله يوخذك»!

وكان ما توقّعته. كان دخل بيتنا كوسيط لحلّ مشكل وقع بين خالي مسعد ورجل من المنظّمة، وانتهى الأمر بأن أمرتني أمّي رسميًّا بالزواج منه.

هو قال إنّه سيأخذني خطيفة إن لم أوافق، ولم يكن يحتاج للكثير من التهديد، فأخي أحمد وجد أنّها فرصة جيّدة ستمكّنه من تعزيز وجوده في صفوف المنظّمة، كما ستجعل منه نموذجًا يحتذى به لزواجه من وفيقة، وهي الأخرى فلسطينيّة من المخيّم، كشرة ولا يطيقها أحد، وكان قد تزوّجها للهدف ذاته.

بعد علقة صبغت يديّ وفخذيّ بطبع زرقاء وخضراء لأيّام طويلة، بلاني بها أحمد بغياب أمّي وأبي، جاءت الليلة التي عذّبتني فيها نبيلة «بالسكّر»، بينما أعّدت لي أمّي كأسًا من الليمونادا لترتدّ لي الروح، ورغم أنّ شعر عانتي لم ينمُ بعد، فقد أصرّت أمّي على تسليمي له متلألئة، لكنّها ندمت لاحقًا وخافت أن يجنّ.

عندما دخلنا بيتنا لأول مرّة، عرفت أنّ شيئًا فظيعًا سيحدث، كأنّ هناك من سلّمني إلى الغول. لم أفهم سرّ يده التي تطبق على الشفاه عند تقبيلها. كان فكّي يتكسّر وأسناني تصطكّ وخفت أن

يعضّني. كانت قبلاً، وجسد يصطكّ بجسد، ينخبط فيه، يهزّه، وكفى.

وتوالت الليالي، وكان عملاً شاقًّا علينا القيام به يوميًّا حتى يأتي سعيد، الذي بدا مقرفًا منذ اللحظة الأولى. ياه كم كرهت ابني الذي لم ألده، كرهت فكرة سعيد، مشيته، نظرة عينيه، طريقته في الأكل، فكرة خلقه كلّها. أغمضت عينيّ مرّة ونحن نأكل ورق العنب الذي أعدّته أمّي كي يرضى عنها، وأسرّرت لنفسي، أنّ سعيدًا لن يوجد يومًا. لا الآن ولا في أيّ يوم قادم.

عندما حملت بيارا كنت أعلم أنّها فتاة، رغم أنّه أجبرني على تجهيز ملابس سعيد الزرقاء، لكنّني عرفت أنّها فتاة. تقبّل الأمر، ربّما لأنّ كلّ من رآها قال إنّها تشبهه، وعزوا الأمر لشدّة حبّي به. حين ولدتها لم أصدّق أنّ من الممكن أن ألد مخلوقًا بهذا القبح. كتلة من اللحم الأسود بدأ ينشطف يومًا بعد يوم. كان سعيدًا بها، رغم أنّه لم يكن يريدها في البداية. يعود إلى البيت محمّلاً بأكياس الخضار واللحم والدجاج الذي يكهربني منظره، والذي يعني أنّ عليّ تنظيفه، وربّما فرط الملوخيّة التي يحضرها بعشرات الكيلوغرامات في فصل الصيف لنتكئ عليها بالشتاء. يلقي بما بين يديه ثم يضع يارا فوق كتفيه ويصطحبها إلى محلّ الألعاب أو دكّان سالم ويعيدها محمّلة بالألعاب والحلويات. وكانت هي تنتظر عودته، وربّما تحبّه أيضًا.

أحببت رؤيتها معه هكذا، وفي لحظة أحسست بأنّني أظلمه. كنت أعيد على نفسي تكرار صفاته التي أجدها جيّدة، فلا تتعدّى

أصابع يد واحدة. ثم ما يلبث أن يمحو من رأسي كلّ ذلك بقلبة مزاج واحدة تجعلني أتأكّد أنّني أعيش مع مجنون.

اليوم عيد الأضحى، وعلينا أن نذهب لزيارة قبر زوج خالتي في برجا، الأمر الذي لم أجد له داعيًا سوى رغبته في الذهاب لرؤية جمال زوج نبيلة، ليتناول معه فطور العيد الدسم الذي يتشارك الاثنان في تسمينه وتدسيمه باللحمة المفرومة على الحمّص والفتّة والأورما. لبست بصعوبة، فلا شيء من ملابسي يلائمني الآن وانا أدخل شهري التاسع. ألبست يارا ملابس العيد وهي نائمة بينما ينتظرنا هو على كرسي غرفة السفرة، مستعجلاً إيّانا.

مجموعة من المسلّحين تقف أسفل جسر الكولا بجانب مدفعيّة، يرفع لهم ذراعه ملوّحًا، يسألهم عن الطريق إلى الجديدة فيردّون عليه: «سالكة».

فكّرت لو أنّ قنبلة تقصفنا الآن فننهي هذا الأمر، ربّما أنجو أنا وحدي فينتهي من حياتي إلى الأبد، ومن الأفضل لو أجهض أثناء الحادث فلا يبقى من أثره شيء على الإطلاق. ابتسمت في سرّي وأزحت تلك الصورة من رأسي وأنا ألعن نفسي السيّئة. لكنّني لم أتوقّف عن التفكير بالأمر رغم ذلك.

وصلنا بيت أمّي لاصطحابها معنا كما كان مقرّرًا من الليلة الماضية. رائحة شياط الكرشات والكوارع التي تعدّها خصّيصًا له تصل أول العمارة. تفترش أمّ سمير الأرض واضعة مفرمة خشبيّة متصدّعة بين فخذيها المكتنزتين، وتلفّ ورق العنب الذي أعلم أنّها ستضعه فوق الكوارع لتدسيمه.

رؤيتها بفستانها البيتي الأحمر العاري الكتفين جعلتني أتيقّن أنّ هذا اليوم لن ينتهي على خير. كان من المفترض أن تكون جاهزة لنقلها ونذهب فورًا، لكن أمّي قالتها بصوت يقارب صوت شخص لا يدرك عواقب ما يقوله، قالت إنّها لم تنه تحضير الطعام بعد، وعليها أن تحشو الكرشات وتسلقها فالجميع سيأتي لتناول الطعام، بمن فيهم نحن.

لم أكن أصدّق أنّ موضوعًا كهذا سيجعل منّي مذنبة في شيء. إنّه الغول مرّة أخرى، ينفخ ويلعن ويشتم. شراميط كلّنا، أنا وأمّي وأخواتي وحتى يارا. وعندما فتحت فمي لأنطق كلمة «ما صار شي»، ضرب زجاج السيّارة الأمامي بوكسًا أحدث دوائر متشقّقة حول الضربة، ما زاد من غضبه على زجاج السيّارة الذي تحطّم وأصبح الأمر أخطر الآن.

وصلنا البيت وأنا متجمّدة في الكرسي أحاول أن أخفي أنفاسي كي لا تستفزّه. كنت أمشي خلفه متباطئة على درج العمارة حتى الطابق الثالث. الكهرباء مقطوعة وبيت الدرج معتم دون إنارة. أحمل يارا وأصعد بكلّ بطء. هو ركض أمامي كأنّه في مهمّة. هممت بأن أدخل الباب الذي كان مفتوحًا: هذا بيتي، أقول لنفسي، ليس عليّ أن أخاف من بيتي، أقول وأكرّر وأنا أدير رأسي في غرفة الجلوس لأتأكّد من مكان وجوده.

خرج من غرفة النوم حاملاً الكلاشنكوف الذي يخبّئه أسفل سريرنا. أنزلت يارا التي ركضت فورًا إلى غرفتها. أمسك بشعري وأنا على عتبة الباب. وضع فوهة الكلاشن في رقبتي وأركعني عند

قدميه قال: «بصفّي دمك على العتبة إذا بحياتك بتردّي عليّ».

هل سيقتلني؟ هل سيفعل حقًّا؟ ليس هناك ما يمنعه. ليس هناك من يحاسبه على الأمر. لا أحد. وربّما يقبّل أحمد يده إن فعل، ويثني على قراراته. «سيقتلني سيقتلني»!

لم يقتلني، وبعد عشر دقائق كان يجلس على البلكون ويحصي المارّين في الشارع، ويطلب أن أقلي له لحمة ليضعها فوق الحمّص الذي صنعه في المطبخ مفرغًا كلّ خزائنه. لم تجفّ الدموع من عينيّ، الأمر الذي استغربه هو وقال لي وهو يعذّب الرغيف بين يديه: «بضربك عن جدّ هلأ عشان ما تبكي ببلاش».

تلك اللحظة قرّرت قراري الذي لا رجعة عنه: لن أبقى مع هذا الغول. لن أبقى مع هذا الغول ولو كلّف الأمر أن أقتله بيديّ.

لم يأت سعيد هذه المرّة أيضًا. جاءت فتاة سمينة بيضاء بشعر سميك يغطّي وجهها. رؤيتها أصابتني بالفرح وأصابته بالجنون. سمعته يصرخ على أمّي في الممرّ كما يسمعه كلّ من في المستشفى. حاولت إخراس صوته في أذنيّ وأنا أتأمّل هذه المخلوقة التي جاءتني من السماء. «هذه حقًّا ابنتي»، قلت في نفسي. كانت خالية من كلّ شوائب الولادة: لا ثنايا ولا بقع حمراء، كأنّها خلقت في بطني منذ شهرين وتنزل الآن بكامل بهائها. دخل عليّ، رغم محاولة الجميع منعه لأنّني نفاس، وحزني من الممكن أن يضرّ بحليب البوبو. أغمضت عينيّ بشدّة، كذلك فعلت البوبو الصغيرة في مهدها. قال: «عاملة حالك نايمة ما بتجيبي إلّا الشراميط اللي زيّك».

خرج من الغرفة والمستشفى مصطحبًا معه أمّي بالقوّة. اختفى أيّامًا. عندما نزلت من المستشفى لم يكن موجودًا. اتّصل بعد عدّة أيّام. كان هادئًا ولطيفًا. أخبرني أنّه مضطر للسفر في مهمّة، وسيغيب مدّة من الزمن. كان يفعل ذلك أحيانًا. اطمأنّ على البوبو التي لم يكن قد عرف اسمها حتى تلك اللحظة.

الطبيب أطلق عليها اسم جمانة. جمانة ذات الرائحة الملائكيّة المخلوطة بالحليب الناشف، أمّ سمير قالت إنّ صوته نشّف الحليب في «بزّي» فلم ينزل الحليب، فاستعضنا عنه بالحليب الناشف الذي التهمته جمانة بنهم.

فورًا انتقلنا أنا وجمانة للعيش في بيت أبي. أمّي التي أقنعتني بشتّى الوسائل أن لا أفعل سكتت بعد تهديدي بالانتحار إن بقيت معه. كلّ شيء كان مهيّئًا لتركه حتى غيابه في تلك الفترة تحديدًا، الفترة ذاتها التي عاد بها عمر في زيارة من كندا. رؤيته مرّة أخرى واقفًا بجانب أمّه على البلكون أكّدت لي أنّ كلّ شيء سيعود إلى عهده.

كلّ شيء بدا مختلفًا تلك اللحظة وهو يبتسم لي دون أن تراه أمّه التي لن يعجبها ذلك، والتي حاولت جرّه ليدخل ولا يراني. صوت بائع السردين في الأسفل يجرّ عربته، يأتي برائحة البحر ويصرخ: «سردين، للقلي يا سردين».

أغنية «بلغي كلّ مواعيدي مواعيدي.. لمّن إنتي بتريدي بتريدي» تصدح من راديو أمّي الموضوع على البلكون لتسمعه الجارات. كلّ شيء كان مثاليًّا، حتى اقتحمت زوجة أحمد باب

بيتنا، لتخبر أمّي أنّها سمعت أخبارًا أنّ «بيروت رح تولّع»، وأنّ إسرائيل ستقصف الأخضر واليابس، كما سمعت في الفاكهاني.

جلست أمّي قبالتها على الكنبة وهي تنظر بطرف عينها نحوي. كنّا نسمّيها الراديو الثوريّ لأنّها على اطّلاع مباشر بكلّ ما يحدث على خطوط التماس من بيروت الغربيّة حتى الشرقيّة.

ـ تعي تنشوفك ست أمال، ولا بطّلنا من مقامك؟

لم أردّ عليها، وأزحت لها قفاي لتقابل وجهها مباشرة:

ـ قومي ارجعي لبيت جوزك بلا عنطزة، زلمة زيّ السكرة مو مخلّيكي عاوزة شي، بدل وقفتك عالبلكونات للرايح والجاي.

أوقفتها أمّ سمير التي لا تحبّ الخوض معها في جدالات في العادة، لأنّها خبيرة بلسانها السليط:

ـ شو هالحكي وليه وفيقة؟ استحي عاد.

لم أسكت أنا أيضًا: «أنا حرّة حبيبتي، طول مبيي موجود ما حدا إلو عندي».

ـ بس أنت متجوّزة ست أمال، وجوزك فدائي بقول للأرض اهتزّي ما حدا قدي. والله لو يشوفك مشلّحة هيك وواقفة ليقطع راسك.

ـ إي حلّي أنت والفدائيية تبعونك، خربتولنا البلد من يوم محطيتو رجليكم فيها.

ـ إحنا اللي عمّرنا بيروت حبيبتي. مصاري المنظّمة اللي عم

تنرش هون هون هي اللي ممشية البلد.

ـ وطزّ يا مصاري المنظّمة طزّ، سرقة وحرمنة وبيوت منخولة نخل. حلّو عنّا بقا.

ندمت أمّ سمير على ردّها على وفيقة. حين أتى أحمد ليلاً وحاول أن يهجم عليّ ويضربني أمام يارا، ولولا أنّ أبي «قشطو» من البيت ومنعه هو وزوجته من دخوله ما دمت أنا موجودة فيه، لكنت انتهيت في المستشفى.

وضع أبي رأسي على كتفه التي تعبق برائحة الكولونيا وبقايا روائح الصبغة السوداء التي وضعها على شعره صباحًا. قال لي: «ولا يهمّك يا بنت أنا هون». وكنت أعلم أنّ لا حول له ولا قوّة في مواجهة أبو السعيد وأحمد، لكنّه بدا شجاعًا تلك اللحظة ومطمئنًا، قال: «أنا قدرت لأمّ سمير ما بدّي أقدرلو»؟

قضينا الليلة على البلكون أنا وأبي وطرف عمر يطلّ من خلف الستارة المخطّطة. سرد لي فيها كلّ القصص التي أحفظها كما أحفظ اسمي: كيف خطفته أمّ سمير من ابنة عمّه سارة التي لها وجه قمر منوّر، ويدان حليبيّتان شفّافتان تستطيع أن ترى ما يدور تحتهما. كانت خطبتهما مشهورة تكلّم عنها أهل القرية أيّامًا، فعائلته من أغنى العائلات التي تسكن الجبل. بعد الخطبة مباشرة أصابه مرض غريب أطرحه الفراش أيّامًا وليالي. أمّ سمير كانت ممرّضة العيادة، صارت تزوره في البيت كلّ يوم لتعطيه إبرة في العضل، «وحطّت عينها عليّ»، كما يقول أبي، فلم يقم من الفراش حتى كان متّفقًا معها على الزواج خطيفة.

هرب معها إلى بيروت وتزوّجا، ومنذ ذلك اليوم حرمته عائلته من أموالها ونبذه الجميع. سارة سافرت مع أمّها إلى أميركا بعد الفضيحة التي ألمّت بها.

يلعن أبي نفسه على تلك الأيّام، ويؤكّد أنّ أمّ سمير لا بدّ أنّها صنعت له سحرًا جعله لا يرى سواها، فقد كانت وما زالت قبيحة الوجه والجسد، عكسه هو المشهور بوسامته وحسنه وأناقته.

يسرد أبي القصّة بكلّ فخر، فهي تأكيد على أنّ حظّه كان سيكون مختلفًا لولا زواجه بأمّي، وأنّ عمله في فندق شقيقته كطبّاخ احتياطي ليس إلّا انحرافًا في القدر. لكنّه، وككلّ مرّة، يؤكّد في نهاية القصّة على فرحه الشديد بإنجابنا نحن الخمسة، ويؤكّد على أنّ أمّ سمير «ما إشبا شي»، لولا قبح وجهها الذي لا يقارن بسارة.

قطعت السهرة أصوات قصف عنيف أتى من جهة البحر، دخلنا بعده فورًا إلى الداخل. تابعنا صوت مونتي كارلو على مدى أيّام نسمع الأخبار التي كانت تقول إنّ أبو عمّار يقصف إسرائيل ردًّا على قصف الجنوب، وإنّ الإسرائيليّين يهاجرون من حيفا وتل أبيب خوفًا من صواريخ الفلسطينيّين. وفيقة تأتي بأخبار متفرّقة من المخيّمات، وتسردها علينا فرحة وهي تؤكّد أنّ الأميركيّين والإسرائيليّين يرجون الفلسطينيّين لعقد اتّفاقيّة لوقف قصف المدفعيّة، ثم اقتربت من أذني وهمست لي بأنّها شاهدت أبو السعيد يتجوّل في المخيّم دون أن يراها هو.

خبّأت جسدي الذي تمطمط بعد الولادة بفستان واسع عند البطن، ووقفت أنتظر عمر عند مدخل الجامعة العربيّة بعد أن أشار

لي بيده من طرف النافذة بذلك. عمر قال إنّه لن يتركني، لكن عليه أن يسافر مرّة أخرى خوفًا من إغلاق المطار. ودّعني مرّة ثانية على صوت قصف ظهر فجأة وذهب.

ظهر أبو السعيد أخيرًا على باب بيتنا، اختبأت في الحمّام بينما أحمد ينقل له خبر طلبي للطلاق مجبرًا. أقنعه أبي أنّها فترة موقّتة حتى أعود إلى رشدي، ووعده أن يردّني إليه خلال فترة العدّة، «فقط لنضحك على عقلها بالطلاق الآن»، قال له أبي ملاطفًا، بينما أعدّت له أمّي كأس ليموناضة، ووعده أحمد بأنّه سيريني نجوم الظهر حتى أعود إليه.

طلب أن يراني لكن أبي أقنعه أنّني خائفة منه، وقال إنّ البنتين أمانة في عنقه حتى نعود لبعضنا. أخذ يارا التي تعلّقت بعنقه جولة في سيّارته المرسيدس البيضاء الجديدة، وأعادها مساء.

تطلّقنا بعد مفاوضات طويلة، على أن يرى البنتين كلّ يوم أحد من الصباح حتى المساء. لم يترك أحدًا إلّا وأرسله لردّي، مرّة مهدّدًا على لسان وفيقة وأمّها وزوجة أخيها، ومرّة أخرى راجيًا ومتوسّلاً على لسان ميسّر زوجة صديقه أبو النصر.

لكنّني تحوّلت إلى صخرة لا تستمع إلى أحد، وأحسست بخفّة عجيبة فجأة تصيب أطرافي وجسدي وروحي. حتى بكاء جمانة لم يعد يصيبني بما كان يصيبني به في السابق. خاصّة أنّ أمّي التي عادت إليها عاطفة غريبة تجاه الأطفال منذ سكنّا في بيتها، صارت أمًّا بالنيابة عنّي، تقوم بكلّ ما تفعله الأمّهات لبناتهنّ بسعادة تفوق سعادتي، حتى إنّني أحسست أنّها صارت أكثر فرحًا وهي تدير لأبي

قفاها الكبيرة وتتركه جالسًا على البلكونة وحيدًا، يتغزّل بجاراتنا سرًّا وجهرًا، وتأتي لتداعب جمانة أو تلعب مع يارا بيت بيوت.

مرّت الأشهر الثلاثة دون أن يحدث شيء. أبو السعيد يمرّ يوميًّا من شارع البيت في جيب عسكري بصحبة عدد من أصدقائه الذين يحملون الكلاشينات، وينظرون نحو بيتنا. أمّي لطمت على وجهها وقالت: «سيفعلها ويهدّ العمارة». أحمد قال إنّه لن يتجرّأ على فعل شيء الآن، فوضع الفلسطينيّين على كفّ عفريت، ويبدو أنّ حربًا ستندلع قريبًا ردًّا على حرب المدفعيّة.

وجاء ذلك الأحد. كان يقف في الأسفل منتظرًا أحمد ليحضر له يارا وجمانة. نظرت من بلكونة أمّي من خلف قواوير الورد. بحلق في وجهي وأرسلت عيناه نظرة أعرفها تمامًا أعادت لي خوفًا كنت حاولت أن أنساه منذ خرجت من ذلك البيت.

دخلت فورًا إلى الداخل دون أن أردّ تلك النظرة. جهّزت حقيبة جمانة بعناية: الفوط والببرونة والحليب الناشف ووجبة من شوربة دجاج مهروسة، وتبّان أحمر إضافي. يارا وقفت فوق رأسي تريد أن أضع لها من أحمر الشفاه الأحمر، لكنّني خفت أن يثور عليها أن فعلت، فخرجت من الباب تبكي وتصرخ لا تريد أن تذهب.

ذهبت إلى أمّ عبدو صاحبة محلّ الملابس أوّل كورنيش المزرعة لأطلب عملاً، أمّ عبدو «قطعت إيدها وشحدت عليها». التقيت هناك سلمى صدفة. لم تكن تريد أن تراها أمّي فتضطر للنزول إلى البيت. تشعر سلمى بالقرف من كلّ ما له علاقة بالطريق

الجديدة، الأمر الذي يستفزّ أحمد وزوجته فتشتعل ثورة داخل البيت حالما يلتقون صدفة أو في أحد الأعياد. ورغم أنّها لم تعد تشتري ملابسها إلّا من الحمرا، لكنّها تحنّ إلى بضاعة أمّ عبدو فتزورها من حين لآخر لتبحث عن ملابس مستوردة بأسعار رخيصة.

أقلّتني بسيّارتها نحو مطعم على الروشة حيث تنتظرها اثنتان من زوجات زملاء زوجها الذي يعمل في الجيش. بالطبع لم تنس سلمى أن تحرج علي كما تفعل دائمًا أن لا أفتح سيرة الطريق الجديدة وأبو السعيد أمامهم.

كنت زرت المطعم سابقًا مع أبو السعيد، اصطحبنا أنا وأمّي وأبي وأخته حين جاءت في زيارة من عمان بصحبة زوجها، لم تترك شيئًا إلّا علّقت عليه، لم يكن يعجبها شيء، لا المطعم ولا الخدمة ولا الكراسي غير المريحة كما قالت، وكادت تقع مشكلة بينها وبين أبو السعيد الذي ضاق ذرعًا بنكدها، فدعاها للعودة إلى مطاعم وادي الحدادة الفاخرة المطلّة على السيل حيث تسكن في عمان، ويا ويلي على الصرخة التي أطلقتها في وجهه وهي تؤشّر بيدها في الهواء وتقول له «الله يرحم سوق البصل اللي طلعتك. الله يخلّيها المنظّمة اللي خلّتكم تفتّو مصاري عنسوانكم». وبدا أنّها ستبدأ بي، لولا أنّ أمّي لطّفت الأجواء وغيّرت الموضوع. لكنّها ظلّت تعود وتكرّر الأمر بين فترة وأخرى، وظلّت متكدّرة طوال الجلسة ونكّدت على الجميع، فأكلنا بسرعة وعدنا إلى البيت.

ولم ننهِ ذلك اليوم دون شجار عنيف حصل وأنا أجهّز لها

فراش يارا لتنام، وفهمت لاحقًا من أبو السعيد أنّها كانت تريدنا أن نفضّي لها غرفتنا لتنام فيها مع زوجها الذي أشفقت عليه لزواجه تلك المرأة المخيفة.

لم أكن أحبّ صحبة صديقات سلمى، لكنّني كنت مستمتعة هذا اليوم تحديدًا، خاصّة أنّني لم أذهب إلى أيّ مطعم منذ تركت أبو السعيد. طلبت سلمى التبّولة والفتّوش والكبّة النيّة والسودا النيّة والمتوّمة وطلبت مارلين سمكة لوقوس وصحن شريم وكالاماري وأربع زجاجات بيرة مثلّجة.

بعد الغداء ذهبنا إلى مقهى في الحمرا يفتح أبوابه باكرًا لطالبي السهر الذي بات مستحيلاً ليلاً، فتح لنا أحدهم الباب من الداخل. رقصنا على أنغام أغنيات فرنسيّة دندنتها سلمى كأنّها تعرفها، رغم أنّني متأكّدة أنّها لا تعرف الفرنسيّة. رقصت على تلك الأنغام وصورة عمر تظهر لي كلّما أغلقت جفنيّ. سينهي دراسة الهندسة ويعود إلى بيروت ونتزوّج. هكذا قال لي. لم أسأل ما سيحدث للفتاتين تلك اللحظة، الموضوع الذي ينغّص عليّ حلم عمر، فأمّه ستموت إن تزوّج امرأة بصحبة بنتين، هو المهندس الوسيم الشابّ الذي دفعت كلّ ما تملك على تعليمه في كندا.

عدت في السابعة إلّا ربعًا مسرعة خوفًا من مصادفة أبو السعيد وهو يعيد الفتاتين أسفل العمارة، جهّزت الفرشتين بجانب سريري ولبست بيجامتي على الفور. جمانة تعود منهنهة من البكاء في العادة، بينما ترفض يارا العودة فترفس أحمد برجليها.

دقّ أحمد الباب وسألني أين كنت، ثم قال لي ما كان يعرفه

منذ الرابعة. قال بشيء من الراحة إنّ أبو السعيد أتى بأخته من عمان لأخذ الفتاتين وهما الآن في طريقهما إلى عمان. أحمد بدا متلعثمًا لكنّه كان يمرّر كلمات من قبيل «خلّيه يلتزم ببناتو، هالختيار بصرف عليهم من تسع شهور».

أحمد قال إنّ رسالته تضمّنت أنّه سيعيد الفتاتين إن عدت إليه، وأخذ بهديي للعودة إلى بيت زوجي وإنهاء القصّة.

## ٢

قتلته، لحقت به قبل أن يصعد إلى السفينة، رأيت أبو النصر الذي اعتقد أنّني آتية لأذهب معهم وأشار لي إلى مكانه، كانت الأجساد المتزاحمة وحبّات الأرزّ والورد التي ترشّ فوق الرؤوس تحوّلني إلى جثّة وأنا أرمي بجسدي بكلّ ثقله لأعبر، كلّ ما فعلته في الستّة شهور السابقة هو اللحاق به تحت القصف من مقرّ إلى مقرّ، ومن بناية إلى أخرى، أرجوه أن يعيد لي الفتاتين. والآن سيركب تلك السفينة ويسافر إلى الأبد.

والفتاتان لا طريق لهما، المطار مغلق والحرب أكلت كلّ شيء. وقفت أمامه. كان محاطًا بنساء ورجال أعرفهم من الفاكهاني. طلبت منه أن نتحدّث بعيدًا، كان عليّ أن أقترب منه كثيرًا ليسمعني. رائحته كانت مختلفة عن تلك الرائحة الغالية الثمن التي اعتاد رشّها بكثافة كلّ صباح، ذقنه نابتة والعرق يتصبّب من جبينه. رجوته أن نتحدّث للحظات عند منطقة قريبة من الميناء. وضع سيجارته بين شفتيه ونظر في عينيّ جيّدًا، ربّما اعتقد أنّني فعلاً سأصعد إلى السفينة معه. كانت عيناه طافحتين بالدموع،

كذلك كان كلّ من حوله يبكي ويصرخ ويشهق، عيناي كانتا كذلك أيضًا، لكن لأسباب أخرى.

لحق بي وكان عاطفيًّا والنساء تشدّ به من كلّ جهة وتطلق له صدورها ووجوهها تقبيلاً وضمًّا، حتى إنّه أمسك بيدي بحنو في محاولة للخروج من موكب الوداع الذي أغلق كلّ شوارع بيروت.

مشى أمامي ومشيت خلفه حتى وصلنا إلى منطقة معزولة على الشاطئ. كان ينظر باتّجاه البحر حيث كانت السفينة واقفة: وين البنات كمال؟

ـ تعي معنا بنجيبهم وبنعيش مع بعض.

ـ الله يخلّيك يا كمال رجّعلي بناتي حرام بكونوا ماتوا عند أختك.

ـ إن شا الله بتقبرهم المهمّ أنت ما تشوفيهم.

ـ بوس إجريك يا كمال رجعلي ياهم.

ارتميت على فخذه وكنت أعرف أنّه يغار من تلك المنطقة. نفضني بقوّة وقال:

ـ ما إلك عندي اشي، وبناتك بس أموت بتشوفيهم.

ـ متوحّش.

أدار وجهه ومشى على حافّة البحر الذي بلّل طرف بنطلونه الجيشيّ، وكانت خيبة الأمل بادية على مشيته. كانت تلك اللحظة المناسبة لأنهي كلّ شيء، عليه أن يموت، أن ينتهي من حياتي

وحياة طفلتي إلى الأبد، وجوده يعني موتنا، أخرجت المسدس الذي يخبّئه أحمد في بيت أبي أحتياطًا، ودون أن يخرج صوتي، وكما تمرّنت أمام المرآة قبل أن آتي، صوّبته نحوه كما علّمني هو مرّة أن أفعل حين وضع مسدّسه بين يدي متباهيًا بقدرته على فكّه وتنظيفه بسرعة البرق.

نعم قتلته. جسده سقط على طرف البحر وربّما بعد أن أدرت بوجهي هاربة وأنا أمسك بمسدّس أحمد الذي ظننت أنّه لا يطلق الرصاص، ربّما أخذه البحر بعيدًا عن شطّ بيروت، أخذه إلى عرض البحر وأكلته الأسماك.

ركضت دون أن أنظر خلفي، وصلت الشارع دون أن ينتبه أحد أنّني موجودة أصلاً، المسدّس لا يزال في يدي، لكنّ الجميع كان يحمل مسدّسات ويطلقونها في الهواء تحيّة للمغادرين.

لقد قتلته. لم يكن القتل مخيفًا إلى الدرجة التي توقّعتها. يوميًّا يقع المئات قتلى في حرب لم أفهم سببها حتى الآن. لن يؤثّر موته على أحد.

وصلت الشارع ونظرت من أعلى نحوه. لكنّني لم أستطع أن أراه. هبّت نسمة مفاجئة رغم أنّه كان يومًا صيفيًّا لا نسيم فيه. دخلت الريح من تحت أذنيّ وأزاحت شعري عن عنقي، أحسست بأنّ هناك من يلحق بي فركضت صوب الجهة الأخرى مبتعدة عن

الجمع المغادر والمودّع. رأيت وجه يارا تبكي أباها، وانتبهت. لقد أصبحتا الآن يتيمتي الأب بعد أن تحوّلتا برغم وجودي إلى يتيمتي الأمّ أيضًا.

غادروا جميعًا في صبيحة آخر يوم من أيّام آب. التلفاز أتى بصورهم يلوّحون من على السفينة وهي تغيب في البحر، ويزيدون البحر ملوحة بدموعهم التي لم تتوقّف. أصبت بالحزن فجأة، وأنا أرى أطفالاً يلعبون بكلاشينات أبائهم، وأمّهات يبكين أشياء تركنها خلفهنّ. خرج الجميع كما قالت وفيقة بكيس بحّارة، ملأوه بأهمّ ما لديهم من أشياء. فكّرت تلك اللحظة ببيتنا في الحمرا، ماذا فعل أبو السعيد بأثاثنا وأشيائنا التي فيه.

بدأت أسأل كيف يمكن الوصول إلى عمان. أحمد قال إنّ الأمر مستحيل وهو يعلم ما يدور في رأسي، قرّرت أن أذهب إلى سلمى وأطلب من زوجها تدبير الأمر. ربّما أستطيع الوصول برًّا من سوريا. ربّما إن دبّرت بعض النقود استطاع أحدهم تهريبي من هناك.

وفيقة لم تكفّ عن البكاء. أخوها كان واحدًا من المقاتلين الذين رحلوا وقد فقدت الآخر بالحصار. كانت تردّد أنّ الفلسطينيّين تيتّموا مرّة أخرى، تلطم على خدّها وتقول: «رح ينهشونا نهش من بعدكم يا رجال». أشفقت عليها ولم يزعجني عويلها للمرّة الأولى منذ رأيتها. بكيت أنا أيضًا معها. بكيت وشهقت ثم لحقت بنا أمّي وتبعها أبي وأحمد.

لم يستطع أحد الخروج لأكثر من عشرة أيّام. القصف شديد

والشوارع فارغة وأخبار عن وصول الإسرائيليّين إلى كلّ شوارع بيروت الغربيّة وتمشيطهم البيوت والمخيّمات بحثًا عن مقاتلين فلسطينيّين.

تكدّسنا في بيت أحمد في الطابق السفلي الخالي من النوافذ. حاولت احتمال وفيقة التي لا تتوقّف عن ضرب خدودها خوفًا على عائلتها التي فقدت كلّ اتّصال معهم. رائحة البراز والعرق تخنقنا فنسدّ أنوفنا بشقفة قماش كانت يومًا فانيلة أحمد. الماء فقط للشرب. الطعام معلّبات لا تحتاج إلى التسخين. أحمد وأبي لا يتوقّفان عن لعب طاولة الزهر وعلينا احتمال صراخهما كلّما غلب أحد منهما أيًّا كان الفائز. سمحنا لمالك وليلى وإخلاص باللعب بالكرة أمام باب الشقّة التي هي مدخل العمارة، لكنّهم تضاربوا وتحوّل المدخل إلى ملعب بعد أن سمع أولاد الجيران صوت ضرب الطابة بالحائط.

لم يستطع أحد منع وفيقة من الخروج بعد ستّة عشر يومًا من الاختباء. كانت مصمّمة على الذهاب إلى المخيّم للإتيان بأمّها وأختها وزوجة أخيها وأولادهم خوفًا من هجوم متوقّع على المخيّمات، خاصّة بعد اغتيال بشير الجميّل. لم أستطع أنا الأخرى البقاء في البيت. كنت أريد أن أعرف إن علم أحد بأمر أبو السعيد، علاوة على أنّ الخروج صار هدفي الوحيد في الحياة. أحمد ظلّ مختبئًا خوفًا من اعتقالات قد تطال اللبنانيّين المحسوبين على المنظّمة.

قطعنا الطريق من الطريق الجديدة إلى شارع الجامعة العربيّة

دون أن تمرّ بنا أيّة سيّارة. صادفنا بعض النساء والأطفال يجرجرون غالونات ماء بيد وربطات خبز باليد الأخرى. سألتهم وفيقة عن الطريق فأخبروها عن وجود جنود إسرائيليّين في أطراف المخيّم وعند كورنيش المزرعة، لكنّهم قالوا إنّهم لا يمنعون أحدًا من المرور. طلبت منّي وفيقة تذكيرها بأخذ غالونات ماء من عند بيت أمّها لنملأها من البئر في طريق عودتنا.

وصلنا باب المخيّم ونحن نرى من بعيد حركة لصحافة وطواقم طبّيّة. خرجت صحافيّة تضع على عنقها كاميرا «كونان» ويافطة تحمل علم السويد وهي منهارة وتمسك بالجدران من حولها. سألتها: «وات وات»؟

وفيقة وضعت يدها على قلبها وهي تلوّح نفسها في المكان في انتظار مصيبة قادمة. كان همّ وفيقة الوحيد الوصول إلى محلّ البقالة الذي فتحته أمّها بعد وفاة أبيها وسط المخيّم. رائحة شبيهة برائحة معاطة الدجاج كانت تشتدّ كلّما تعمّقنا في المشي، وصوت طنين الذباب يعلو. اقتربنا من المجموعة التي كانت تمشي أمامنا. اخترقتهم وفيقة التي أصبحت تتحرّك بعصبيّة شديدة. سمعتها تصرخ وتصرخ، وكان هناك أجانب يبكون وواحد خرج من الجموع وتقيّأ قرب صندلي. دخلت مدقّشة من هم حولي فوجدت وفيقة تشدّ بشعرها وتهزّ جسدها كالبندول أمام جثث لنساء ورجال وأطفال مكوّمة بعضها فوق بعض. أيد وأرجل ورؤوس، ميّزت وفيقة رأسًا صغيرًا أسفل بطن مبقور لامرأة أربعينيّة، وصارت تصرخ «جَنى جنى». هجمت على الجسد الذي في الأعلى. كانت طفلة في

العاشرة تلبس فستانًا ممزّقًا من الأسفل أظهر جزءها السفلي كلّه. جرّتها وفيقة من كتفيها ورمت بها على الأرض. حاولت جرّ جسد آخر، لكنّ الأجساد التي أثقلها الموت الذي ظهر على شكل ذباب يتجوّل بين أفواهها وآذانها وقضم بؤبؤات عيونهم المفتوحة، كانت عصيّة على الحمل.

خرجت جنى من تحت كومة من جيران لم تتعرّف عليهم بعد. جنى في عمر جمانة. لم تتجاوز السنة ونصف السنة، أنا ومريم شقيقة وفيقة ولدنا في الأسبوع نفسه. ضمّتها وفيقة إلى صدرها. الدم الناشف والذباب يغطّي وجهها، ورأسها يتدلّى كلعبة قطع لها طفل رأسها وهو يشدّها من بين يدي طفل آخر. حملت وفيقة جنى بين ذراعيها وتوغّلت بها نحو البقالة.

مجموعات من النساء والأطفال والعجزة يجوبون المكان ويبحثون كما نفعل نحن، عند كلّ كومة نجد من يفتّش عن ذراع تخصّه. وجدنا أمّ جنى في كومة أخرى، وأخاها ملقى على وجهه أمام الدكّان. أمّ وفيقة هي الوحيدة التي نجت. وجدناها وقد فقدت صوتها في زاوية غرفة صفيّة في مدرسة الوكالة.

صرت أذهب كلّ يوم إلى المدرسة أجلب الماء والطعام بالقدر التي تحملها يداي. جلبت علب الحليب والسيريلاك التي كدّستها لجمانة خوفًا من اندلاع حرب. أرضعت الفتاة الصغيرة التي لم تكن تقبل حليب القناني. إحدى النسوة قالت إنّ أمّها كانت ستفطمها لأنّها أدمت حلمتيها، وضعتها بين ذراعي، نظرت إليّ تمامًا كما كانت جمانة تفعل وشدّت شعري.

صار اسمها «جوجو»، وصار اسمي عند الساكنين في غرف المدرسة «مرت الفلسطيني». أخبرت الجميع عن ابنتَيْ الفلسطينيّتين الموجودتين عند عمّتهما في عمان، لأنّ والدهما خاف عليهما من الحرب.

جمانة في سنتها الثانية الآن. إنّها تمشي منذ مدّة وقد نبتت لها أسنان ملأت الفكّ العلوي من فمها. قلت للمرأة التي لم تكن تستيقظ إلّا لتسأل عن ولد اسمه وليد، ما زالت تضع الفوطة، لكنّها ستبدأ قريبًا بالتعلّم على استخدام الحمّام. لا تستغني عن القنّينة حتى لو أكلت طنجرة أرز. يارا صارت في التمهيدي وهي تتكلّم الإنكليزيّة بطلاقة. سنشتري لها درّاجة أكبر السنة المقبلة، إنّها تنمو كالمارد. لقد أخذت جينات خالها سمير: عنيدة ولا ترضى أن يقول لها أحد لا. جمانة ستكون أكثر صبرًا، وقد تصبح طيّارة. فهي تحبّ اللعب بالطيّارات، من المؤكّد أنّ في زمنهم ستتعلّم البنات كيف تطير بالطيّارات.

# جمانة

## ١

لم أهتمّ يومًا بشراء مفرش مزركش للفراش، كلّ ما يهمّني هو حرام ناعم، لا يحفّ ولا يشفّ، أخبّئ به رجليّ اللتين تتلوّيان تحته، وأتساءل دائمًا: لماذا لا أجهد نفسي بفرد ذلك المفرش الرخيص الذي توجّب عليّ شراؤه مع جهاز العرس، والذي لا يبدو جميلاً، وإن كانت له وسادتان كبيرتان يمكن أن تخدعا الناظرين من بعيد. أعتقد أنّني فرشته في الأشهر الأولى من زواجنا ثم أصابني التعب وربّما اللاجدوى من فرده وإزالته مرارًا وتكرارًا كلّ صباح ومساء، على الرّغم من أنّ أحدًا لا يراه ولا يعيره انتباهًا سواء أكان مفرودًا بكامل أبّهته فوق الفراش أو مطويًّا ومحشورًا بين الخزانة والكومودينا عندما ننام، تمامًا كما حدث مع قمصان النوم الفاضحة التي أجبرتني يارا على شرائها. وفراشنا هذا الذي أتكلّم عنه ليس أكثر من فراشي وفراشه، كلّ له حدوده الخاصّة، التي يستطيع أن يمطمط فيها رجليه وذراعيه، دون تعدٍّ على الخطّ

الوهميّ الفاصل، الذي خلقته وسادتانا في ذهن كلّ واحد منّا. ورغم أنّ وسادته أطول من وسادتي بمرّتين، فإنّ أحدًا لم يخطر بباله، أنّ حصّته في الفراش أكبر من حصّتي، وأنّ على الحدود أن تتمدّد بعيدًا عن جسد الوسائد.

تتشكّل وسادتي من وسادتين حشرتا في وجه واحد، يرجع تاريخها إلى زمن شهادتي الثانويّة. بينما تنتمي وسادته إلى وسائد القرن الماضي الطويلة المحشوّة بالقطن، وهي تراث ورثه بصعوبة شديدة عن أمّه التي يمتلئ بيتها بمثل تلك الوسائد المفسّخة الجسد، التي لم يسلم منها سوى ذلك الطرف الساتاني الأصفر الفاقع أو الأزرق السماوي، بينما يغطّي ذلك التفسّخ في جسدها الأبيض المصفرّ، وجهٌ أبيضُ بمربّعات حمراء وبنّيّة لا توحي بأيّ شيء.

هذا ليس لأنّنا لم نشتر وسائد حديثة من نوعيّة فاخرة مع غرفة النوم الجديدة، بل بالعكس، لقد اشترينا أفضلها وكأنّنا نريد أن نثبت أنّنا نستطيع الآن شراء ما نرغب فيه من وسائد صحّيّة بعيدًا عن تلك الوسائد المتعفّنة الموجودة في بيوت أهلنا. لكن تلك الوسائد الناعمة والقاسية لم تجلب لنا سوى ثلاث ليال من عدم النوم، والتواء في الرقبة، وصوت أشبه بالشخير أصدره هو بينما يحاول أن يريح رأسه نحو جهة ما، ما دفعنا مجبرين إلى إعلان هزائمنا واستجداء وسائدنا العازبة للدخول معنا في شهوة الفراش الزوجي.

يبدو الفراش واسعًا وأنا أنظر إليه من حيث أضع رأسي على

طرف وسادتي، فبيني وبينه مسافة تشبه الجسر، مستطيلة وطوليّة وفارغة، كانت تشغلها شيرين في شهور حياتها الأولى. كانت تبكي طوال الليل، فنضطر إلى جلبها لتنام في فراشنا، الذي لم يعد زوجيًّا، فتحوّل ذلك الفراغ ليصير رعبًا كونيًّا يجعلنا نكمش جسدينا بعيدًا عنه، خوفًا من تقلّب فراشي مريح، يحيل هذا الشيء المخيف، الذي لا يذيقنا طعم النوم، إلى شرحة بسطرما. وامتدّت تلك الليالي، ونحن ننتظر نهايتها المنشودة، كما قال لنا الجميع. في البداية قالوا: انتظروا حتى يصير عمرها أربعين يومًا، وجاءت الأربعون المنتظرة، ولم يأت النوم، ثم انتظرنا الأشهر الثلاثة الأولى، ثم ستّة أشهر، ثم سنة، لكن شيرين كانت تتفوّق على توقّعات الآخرين، فنمدّ آمالنا شهرًا آخر، علّها تستجيب أخيرًا إلى التوقّعات الجاهزة عن الأطفال. وكم تخيّلت نفسي أضعها في كرتونة، على شرفة البيت، وأغلق خلفي الباب، ولتصرخ طوال الليل دون ردّ، وكم تصوّرتني أمسك بها بين يدي كما أمسك بدبّ محشوّ، أطيح به في وجه الحائط، ثم أنهال عليه ركلاً ورفسًا، حتى يصمت مرّة واحدة وإلى الأبد.

في الحقيقة لم يحدث كلّ ذلك، ورغم أنّني فهمت تلك الأيّام الكلمة التي كانت تردّدها يارا، حول النوم على المسامير، فقد كنت متأكّدة أنّني لا يمكن أن أكون أمًّا، وأنّني أمثّل تلك العاطفة التي تتكلّم عنها الأمّهات حول الأمومة السحريّة التي تنهال عليهنّ من السماء، حالما يرين أطفالهنّ لأوّل مرّة. فأنا منذ وضعتها في تلك الغرفة المشتركة مع ستّ نساء يتأوّهن وينفعلن وينتظرن هديّة التأمين الوطني في مستشفى المقاصد، لم أعرف كيف يمكن أن

أنحشر مع هذه المخلوقة في الحياة القادمة. الممرّضة التي لم ترضع طفلاً يومًا، شرحت لي كيف أمسح حلمتي وأحشرها بين الإصبعين لأجهّز لشيرين وجبات متلاحقة كلّ ساعتين، لكنّها لم تذكر شيئًا عمّا سيحدث لهذا الثدي الذي كان يومًا نافرًا مكابرًا مقابل لسعات البرد في الشتاء والنشوة في الصيف، لم تقل إنّه بعد أن يلتهب ويتشقّق بفعل المصّ والشفط سيعود لينفّس كالعجلة المثقوبة بعد أن تفرغ شيرين منه. نعم أنا لست أمًّا ولا أستطيع أن أكون.

ثم حصل السحر مرّة واحدة، كانت الساعة الثالثة صباحًا، وكنت منهكة وأكاد أقع، مشيت باتّجاه صراخ شيرين اللانهائي. كانت في شهرها الخامس عشر. نظرت إليها فردّت إليّ النظرة بعنف وأخافتني. بكيت بصوت عال، وهي تنظر إليّ مستغربة فعلتي التي يجب أن تكون فعلتها هي. انحنيت بنصف جسدي فوق قضبان سريرها، وأخبرتها أنّني متعبة وأريد أن أنام ورجوتها، قلت لها: «من شان الله ما تبكي».

سكتت شيرين وربّما راعها منظري المنتحب والمتوسّل وأشفقت عليّ. نظرت إليّ بطرف عينها وابتسمت، ثم لوّحت لي بيدها مودّعة. كانت تقول لي بعينيها وبكلّ التفهّم الموجود في الدنيا: «اذهبي الآن وارتاحي. لن أزعجك».

لم أصدّق ردّة فعلها، لكنّني استجبت بكلّ وداعة لأوامرها، وانتقلت ببطء وأنا أتوقّع أن يعود الصراخ ليمنحني ليلة طويلة من قلّة النوم، لكن ذلك لم يحدث، نامت شيرين ونمت أنا وأصبحنا

منذ تلك اللحظة أعزّ الأصدقاء.

يبدو الفراش واسعًا الآن وشيرين تنام في فراشها الواسع بعيدًا عن ركلنا. أنظر إلى سهيل الذي يخلع نظّاراته أثناء النوم فيصير حاجباه أعرض، ويبدو وجهه بلا حدود. يضع يده أسفل رأسه وينام بهدوء. أرغب في هزّ سهيل لأخبره عن أفكاري التي أخبّئها عنه، لأنّني أعتقد أنّ عقله البسيط الذي لم يعرف الحياة المعقّدة يومًا لن يستوعب أن أهزّه في منتصف الليل لأقول له: «ضمّني»! كان سيعتبر ذلك جنونًا ليس له داع. لكنّني خائفة، وذلك الجسر الذي يفصل بين فراشي وفراشه يتوسّع.

التلفاز يأتي بأخبار الزلازل والفيضانات والثورات. الموت على الشاشة بالمجان. إنّها الثورات في كلّ مكان، تونس ومصر واليمن وسوريا، أحاول أن أصنع لي موقفًا منها فلا أستطيع، أريد أن أخرج وأعلن ثورة على أحد ما ولا أستطيع، حين حللت الأمر مع صديقتي ليلى قالت لي إنّ الذي تعوّد الاضطهاد يبرّر فعل اضطهاده ويصبح هو الشكل الأسهل لحياته، ثم ذكرت لي مرضًا نفسيًّا يتلخّص بتآلف المضطهَد مع المضطهِد والتعاطف معه، لكنّني أريد أن أتغيّر، أريد أن أملك الشجاعة لاتّخاذ موقف واضح من حدث كهذا. أشيح بعينَيْ عن مشهد عائلة مذبوحة في سوريا فتصل نحو صورة أبي المرميّة على الرفّ أسفل التلفاز، والتي لم توضع يومًا في إطار. أتذكّر اليوم الذي ذهب فيه لالتقاط هذه الصورة، اليوم الوحيد الذي رأيته فيه مرتديًا بذلته العسكريّة.

رغم أنّه لم يعد عسكريًّا منذ مدة طويلة، فقد كان يريد أن

يتذكّره الآخرون في صورة التقاعد هكذا، كأنّه يريد أن يمحو تلك السنوات الطويلة التي قضاها خلف مكتب جامد، لا يزيد عليه شيئًا سوى كرشه، ويعلي من شأن تلك السنوات القليلة التي قضاها محاربًا ببذلة عسكريّة ربّما لم تكن تشبه تلك البذلة التي في الصورة. أذكر كيف حاول وضع البيريه بأكثر من طريقة ليدخل رأسه الكبير، ورغم كلّ المحاولات لخداع الكاميرا، إلّا أنّه لم يخفِ سوى طرف الصلعة من فوق.

يوم عرفت بأمر زمرة الدم قبل أربع سنوات فكّرت بعدد من الاحتمالات المنطقيّة للأمر، ساعدني في وضعها سهيل، الذي لا يؤمن بالصدف أو السحر أو الماورائيّات. الاحتمال الأوّل الذي يرجّحه سهيل هو أن يكون هناك خطأ في زمرة دم أبي المسجّلة في الهويّة العسكريّة. لست مقتنعة بتلك النظريّة، فأبي أجرى عددًا من العمليّات في عدّة أماكن، ولا يمكن أن يكونوا جميعًا على خطأ. أمّا الاحتمال الثاني فهو أن أكون قد بدّلت في المستشفى، الأمر الذي لا يرجّحه سهيل ولا أنا، فأنا رغم كلّ شيء أملك غمّازات أمّي وشعرَها البنّيّ. الاحتمال الثالث أنّني لست ابنة أبي وعلى الأغلب أن أكون ابنة ذاك الرجل الذي ابتسم لي من خلف إطار الصورة المعلّقة في وسط غرفة جلوس أمّي، والذي أصبح زوجها بعد طلاقه من أبي. وهذا يعني أنّني لست فلسطينيّة أصلاً، ورغم أنّ الموضوع لا يفيدني في معاملات لمّ الشمل والإقامة في القدس، فهو أمر قد يلغي حياتي الماضية كلّها.

وقد يكون الموضوع مجرّد طفرة في الدم لا تعني شيئًا، الأمر

الذي يجده سهيل أقرب إلى المنطق، وأجده أنا تكسيرًا لأحلام لا أريدها أن تتكسّر.

ورغم أنّني أستطيع أن أحلّ الموضوع بفحص شعرة واحدة من شعر يارا، فقد كان الأمر أكثر تعقيدًا ممّا تصوّرت، إذ اكتشفت أنّ إجراء هذا الفحص مقتصر على قضايا جنائيّة، ويجب أن يتمّ بموافقة كلا الطرفين. طبعًا يارا ترفض مجرّد التفكير في الموضوع وتدعوني إلى عدم ذكره أمام سهيل، لأنّ هذا يعني أنّني بنت حرام، وهذا سيؤثّر عليّ مستقبلاً. ثم تفتعل مشكلة كلّما ذكرت الموضوع وتغضب كأنّني أسبّها. هي لا تقول، لكن عينيها الغاضبتين توجّهان لي كلامًا من قبيل «لماذا تريدين التخلّي عنّي؟ لا تجعلي وجودك في حياتي كذبة وتتركيني وحيدة في حقيقتي» تفهّمت بعد فترة غضب يارا حول الموضوع فلم أعد أناقشه معها وكنت أشعر بتفوّق عليها في تلك المسألة، الأمر الذي دفعني للتعاطف معها لأن ليس لها قصّة بديلة ربّما تكون لي.

رأيت أمّي للمرّة الأولى دون معرفة أبي، كان لقاء دراميًّا جمعنا في عمان بكى فيه الجميع. لم تشبه أمّي الصورة الوحيدة التي رأيتها لها في علبة الماكنتوش في بيت عمّتي، كانت أكثر اكتنازًا وعيناها أصغر وأقلّ لمعانًا. راقبت تصرّفاتها مع سليم، ابنها الأصغر من زوجها الثاني، بكثير من الاهتمام، وتمنّيت لو تكون تلك المرأة أمّي. ذهبت إلى بيروت بمعرفة أبي في المرّة الثانية. كان الأمر أسهل ممّا توقّعت. كنت قد تخرّجت حديثًا ولم أجد عملاً، وأصابتني كلّ الأمراض النفسيّة التي جعلت أبي يعتقد

أنّني ربّما أموت حقًّا هذه المرّة من مرض لا تفسير له، وحين جمعت كلّ شجاعتي وأخبرته أنّني أريد رؤية أمّي في بيروت، ردّ دون تفكير بالإيجاب. ثم عمل معي تحقيقًا طويلاً عن الطريقة التي وجدت بها رقم أمّي وطريقة تواصلنا. وأعتقد أنّه أراد أن يثبت أنّه لم يمانع يومًا أن نراها، لكن نحن من لم نذكر الأمر.

في الحقيقة لم أكن أريد أن أذهب إلى هناك لرؤية أمّي بل لرغبة رجل كنت أحبّه في الذهاب إلى بيروت. كنت أيّامها مغناطيسًا للأشخاص الدراميّين الذين يحوّلون كلّ شيء مهما كان صغيرًا إلى معضلة كبرى، وكان ذلك الرجل أكثرهم دراميّة. ذهبنا إلى بيروت بعد أن دبّرت لنا أمّي أمر الڤيزا، وجلس معي في بيت أمّي التي لم تمانع ذلك. قضينا معًا أسبوعًا واحدًا حاول خلاله أن يصاحب جميع النساء اللواتي استطاع مقابلتهنّ، من عاملة الملابس حتى النادلة في المقهى مرورًا بابنة خالتي الممشوقة القوام. ثم قام بعمل درامي حين طرحت أمّي موضوع زواجنا وقرّر ان يرحل من البيت. هو لم يفعل ذلك، وكان الأمر تمثيليّة لأرجوه أن لا يفعل، الأمر الذي فعلته باحتراف. بقي في بيروت أسبوعًا وبقيت أنا مع أمّي حتى نهاية الشهر، الذي شعرت أنّه أطول شهر في حياتي. كنت أريد أن أعود لذلك الرجل، فقط هو من أردت أن أكون معه، فوجود أمّي وعدمه لم يعد يعنيني في تلك المرحلة.

كانت في الصباح تذهب إلى العمل، لتعود وتصطحبني عند الظهر، إلى الحمّام العسكري لنلتقي صديقتيها روان عضّوم وسلام طبّارة اللتين تفتحان شفتيهما بالطريقة ذاتها، كذلك تفعل أمّي حين

تكون معهنّ. خالتي زوجة اللواء المتقاعد، تلبس مايوهها البرتقالي ذا القطعتين وتفرش المنشفة على الكرسي وتلقي بنفسها هناك ساعات طويلة، ويجلس قربها صندلها الذهبي على أهبّة الاستعداد. كنت أدفش فتاة على الشطّ، هذا ما كنت أعرفه وما كنت أراه في نظرات أمّي لفخذيّ المكتنزتين والبيضاوين، اللتين توحيان بأنّهما لم تريا الشمس يومًا. حثّتني أمّي على السباحة، وهي تتأمّل أجساد بنات صديقاتها الممشوقات بشعورهنّ التي تغطّي منتصف ظهورهنّ.

منحتني خالتي زيتًا للتسمير وقالت: «غيّري لونك»؛ الأمر الذي لم أفعله لأنّني أعرف أنّ جلدي سينحرق كما انحرق في تونس مرّة حين ارتميت كما تفعل الفتيات على الشطّ دون واقي للشمس. لم يعجب الأمر أمّي، لكنّها نسيت ذلك وهي تراقب عددًا من الفتيات التفافن حول رجل أمامنا. قالت امرأة تجلس قربنا إنّه منتج للڤيديو كليب، وإنّه اختار ابنتها الشهر الماضي لتصوير إعلان، فردّت أمّي فورًا «أنّ فادي ابنها مخرج، وأنّه يعمل على إعداد مسرحيّة قريبًا». طبعًا فادي لم يتخرّج بعد، لكنّه يشكر الله أنّها نسيت قصّة قبوله المبدئي في كلّيّة الطيران، وإخبارها لكلّ من تعرفه عن كونه طيّارًا.

ورغم كلّ التعليقات التي يصدرها سليم وفادي عن أمّي وصديقاتها، وخصوصًا عن خالتي زوجة اللواء التي تعتبر حديثًا لجميع أولاد العائلة وبناتها بعمليّات تجميلها التي لا تنتهي، فإنّ أمّي تتصرّف كأنّها لا تسمعهم وتعيد تكرار قصصهم المدهشة في كلّ جلساتها النسائيّة.

كلّما ذهبت إلى بيروت تمنّيت لو أنّني لم أذهب. لكنّني أعود دائمًا لأسباب عدّة. فأنا أحيانًا أشتاق لأمّ، أمّ تخيّلتها دومًا وأنا أدور في الغرفة الخلفيّة في بيت عمّتي، وحيدة وخائفة من شيء ما، ولم تكن تلك الأمّ هي ذاتها الأمّ التي أجدها في بيروت. كانت أمًّا بكتفين عريضتين ينغرس فيهما الرأس ويمتلئ برائحة الطبيخ، أمًّا تفلّي لي شعري فوق سطح البيت حين تسطع الشمس في أحد الأيّام الشتائيّة، وتنزع القمل، قملة قملة، أمًّا بأدعية وبخور وتمائم، أمًّا من وحي الأغنيات. تمامًا كما أشتاق لأب في الأعياد والمناسبات الخاصّة، أشتاق لنكاته الوقحة وطريقته في قلب مزاج أيّة جلسة يكون فيها. كنت أتجاوز هذا الاشتياق حالما أتذكّر أنّه سيقوم بتتفيه أيّ تعليق أقوله أمام أحد، أو يهدّدني بتعليقي في السقف لأيّة فعلة أفعلها مهما كانت تافهة. في السابق كنت أعتقد أنّ كلّ الأباء مثل أبي، لكنّني حين بدأت مراقبة سهيل وهو يعانق شيرين ولا يترك المنزل ليبقى معها، شعرت بالغيرة، وأصبحت أتمنّى لو كان لي أب مثله.

أتساءل كيف تجدني شيرين كأمّ أنا التي لا أؤمن بأنّ الأمومة شيء حقيقي، كما يروّج لها في كلّ مكان، بل أنا متأكّدة أنّها فكرة اخترعها الآخرون لبناء المجتمعات، وهي فكرة سياسيّة واجتماعيّة أكثر من كونها إنسانيّة، لأنّها لا تفعل سوى ضبط الحياة وتقييدها، وبطريقة ما إنهائها، وأشعر دائمًا أنّني سأترك كل شيء خلفي وأرحل، فأنا أضعف من أن أكون معهما.

ربّما لهذا حين ذكرت ليلى موضوع المهرجان الذي عقد في

مكان ما بأميركا لتبجيل العادة السرّيّة واعتراضها على كونهم روّجوا للأمر على أساس كون العادة السرّيّة أمرًا صحّيًّا، لم أجد الموضوع مزعجًا أبدًا، بل أعجبتني الفكرة وراقت وقي في الجنس، وكنت متأكّدة أنّها لا شكّ تمارس تلك العادة يوميًّا حين تنام وحيدة برفقة جهاز الحاسوب الذي يأتي على الشهوات كلّها.

لا أذكر منذ متى أصبحت مدمنة على مواقع تجلب الجنس بكلّ أنواعه، وإن كنت أفضّل أن أرى مشاهد لنساء يضربن من كلّ الجهات ويعلّقن بحبال من أثدائهنّ إلى الأعلى، ثم يلجهنّ الرجال الواحد تلو الآخر دون رحمة، لتظهر الواحدة منهنّ في نهاية الفيلم لتقول كم استمتعت بالتجربة وأنّها ستعيدها مرّة أخرى.

ورغم أنّني أشعر بالاشمئزاز غالبًا لا النشوة، فإنّني أعود وأشاهد الأمر مرّة أخرى وأنا أطلب مزيدًا من الضرب والجلد والإذلال. ماجد زوج يارا مدمن على تلك المواقع أيضًا، وكلّ مشاكله مع يارا كما تقول، سببها عدم إرضائه جنسيًّا كما تفعل تلك النساء للرجال هناك. ورغم أنّ الأمر كان يُغضب أبي، فقد كان يحثّ يارا على فعل ما يريده منها، الأمر الذي يغضب يارا ويجعلها تثور، ولا تنفع كلّ محاولاته في التظاهر بالمرض، والنوم على الأريكة ممسكًا بصدره، من منع يارا من سبّ ماجد وأبي، وسبّ اليوم الذي أتت فيه إلى الدنيا.

ورغم أنّ أبي مات منذ ثلاث سنوات، إلّا أنّ يارا لم تملك الجرأة لترك ماجد، وتعزو الأمر إلى الأولاد والناس وأشياء أخرى لا تقنعني. يارا التي تبدو قاسية وجاحدة ولا تهتمّ إلّا بنفسها، لا

تستطيع أن تتطلّق، وكلّما حثثتها على ترك هذا الرجل قالت إنّها لن تكرّر مأساتنا مرّة أخرى.

يعرف سهيل ما سأقوم بفعله، لكنّه غير واثق من المختبر الذي سيجري هذا الفحص دون الحصول على الموافقة من الجهات المسؤولة. وهو رغم ذلك لا يعترض ويقول لي «زي مبدك» دائمًا، ورغم أنّني كنت أعتقد أنّ هذا هو كلّ ما أريده، فقد اكتشفت لاحقًا أنّني غير قادرة على اتّخاذ القرارات وحدي، وكلّ ما أفعله هو عدم اتّخاذها. لذلك أترك العمل تلو الآخر كما كنت أترك الرجل تلو الآخر في السابق. ويقول سهيل إنّني شخص غير قادر على المجابهة، وإنّ هذا لن يؤدّي إلى نجاحي في أيّ عمل. ورغم أنّني أوافقه الرأي فإنّي لا أستطيع المناقشة في الأمر فيسكت هو ويقول «زي مبدك».

استيقظت على صوت شيرين تصرخ: «بدي نونو».

هذه الكلمة تعني أنّها فعلتها فعلاً، وليس عليّ الآن سوى تنظيف مسرح الجريمة. أجبر نفسي على الاستيقاظ بينما سهيل موجود في الحمّام مسبقًا، يحلق ذقنه، ودون أن نتبادل أيّة كلمة تبدأ مراسم تنظيف فراش شيرين التي تقبّلني في محاولة منها لاستدرار عواطفي وعدم توبيخها على هذه الفعلة التي تفعلها كلّ يوم تقريبًا. ثم أحار كالعادة في الساندويشة التي سأعدّها لتأخذها معها إلى الروضة، جرّبت كلّ شيء، اللبنة مع حبّات الزيتون الأسود كتلك التي كان يحضرها سامي معه إلى الروضة ونحن أطفال وشرائح اللحم المدخّن والجبنة البيضاء، حتى إنّني وضعت

لها رقائق القمح مع الحليب في وعاء مغلق، إلّا أنّها تصرّ كلّ يوم على ساندويشة البيض المسلوق.

بالأمس حاولت حثّ أمّي على الكلام، أرسلت لها رسالة على الـ «فايسبوك» لنتحدّث على السكايب، لكنّ الخطّ لم يفلح في إيصال الصوت والصورة، قلت لها أودّ لو تخبرينني عن أبي وعنّي منذ ولادتي. لو أستطيع حثّها على الكلام، لعلّها تقول لي الحقيقة دون الحاجة لإجراء فحوص مشبوهة. تحمّست أمّي للموضوع وكأنّها كانت تنتظر أن يطلب منها أحد ما أن تقول حكايتها، بعد يومين وصلتني منها على الـ «فايسبوك» الرسالة التالية:

❊ طلبت الطلاق

❊ وافق بعد ثلاثه أشهر مفاوضات

❊ وعده بابا أن يرجعنا إذا طلّق بناء للقانون ترجع الزوجة خلال ثلاثه أشهر

❊ كنت جميلة الجميلات

❊ وجه كالقمر لونه أحمر كالورد مخمليّة الخدود

❊ عينان خضراوان

❊ قضينا الوقت عند أهلي حوالى ستّة أشهر

❊ يأخذك وأختك كلّ نهار أحد

❊ على أمل أن أرجع عن موقفي

❊ وأنا التي أصبحت حرّ وحرّ وحرّ

* فلم أوافق علي الرجوع. لم يرسل فلسًا واحدًا لأولاده خلال وجودي عند أهلي

* حاول. مرارًا أن يضغط عليّ مرّة

* بأحدكم إلى صيدا لمنزل صديق له

* وأحيانًا بضغط تهديدي بالسلاح من قبل أخي أحمد

* حتى صار عندي انهيار عصبي

* كان يأخذكما كلّ نهار أحد. أمّا هذا النهار الذي جاءت أخته من عمان

* فقد طلب بأخذ الأولاد متل كلّ يوم أحد لكن هذه المرّة لم يرجعكم آخر النهار

* عندما سألته وينن قال لمّا ترجع بس ترجعي عن الطلاق يرجعوا الأولاد

* لكن بحياتك سمعت عن عصفور ترك القفص ورجع له

* مقابل حرّيّتي كان الثمن غاليًا جدًّا

* بكيت دمًا ومضت أشهر حتى جاء الاجتياح الإسرائيلي

* وحارب الفلسطينيّون ثلاثة أشهر دُمّرت بيروت على أثره

* دمار وموت وطيران يقصف الأخضر واليابس

* حتى وافق أبو عمّار على الخروج من لبنان

* وبعد خروج القوى الفلسطينيّة من لبنان ولعت حرب طاحنة

بين أحزاب القوّات اللبنانيّة والاشتراكيّة سُمّيت حرب الجبل

* وأغلق مطار بيروت لمدّة سنتين

* بكيت كثيرًا حمدت الله علي كلّ شيء

* كنّا نبقى بالملجأ ليلاً ونهارًا

* ودموعي لم تيأس أن يأتي يوم وأجتمع بكما

* في هذه الأثناء ذهبت أمّي إلى عمان لكن عمّتك دشّرتها

* فجاءت بأحد من القوى الأمنيّة. . . ساعدتها سيّدة صديقة لها

* واستطاعت ان تجتمع بكما

لم تفدني قصّة أمّي بشيء وقد منعت نفسي من الضحك على روايتها بصعوبة، خاصّة وأنا أشاهد صورتها وهي تعبط ممثّلاً تركيًّا على جانب الصفحة. ورغم أنّ العلاقة بيننا ليست كتلك التي بين الأمّهات وبناتهنّ، فقد خجلت من سؤالها بشكل مباشر هل خنت أبي وأنجبتني من شخص آخر؟ ربّما هو الذي أصبح زوجك لاحقًا والذي مات الآن للأسف؟ أحسست بأنّها قادرة على ارتكاب أفعال من هذا القبيل، ليس بسبب كلّ الكلام الذي كانت عمّتي تردّده عنها، بل لحادثة أخرى حدثت أثناء زيارتي الأخيرة لبيروت.

كنت حاملاً بشيرين أيّامها، مدّت لي أمّي علبة اختبار بلاستيكيّة وطلبت أن أضع فيها القليل من بولي. في البداية اعتقدت أنّها تريد أن تجري لي فحوصًا لتتأكّد من صحّتي، حتى إنّني شعرت بالسعادة لاهتمامها، لكنّني اكتشفت لاحقًا أنّها متزوّجة عرفيًّا من

رجل متزوّج، وأنّها تطلّقت منه، لكنّها أرادت أن توهمه بأنّها حامل. أخذت منّي العلبة ودخلت غرفتها ونسيت أنّني موجودة وأنّ سهيل نائم في غرفة سليم وفادي القريبة جدًّا. لبست فستانًا نهديًّا بفتحتين على الكتفين وهي تغنّي أغنية لعمرو دياب بصوت عال، وخرجت. لم أسألها ما حدث حين عادت قبل منتصف الليل بقليل، كانت سعيدة جدًّا وجلبت هدايا للجميع بمناسبة رأس السنة إلّا لي. يومها دخلت غرفة سليم وفادي وقلت لسهيل إنّني لن أعود إلى هذا البيت يومًا، وبكيت حدّ الاختناق. سهيل أيضًا كان يشعر بالضيق نفسه، الأمر الذي فسّرناه لاحقًا بأنّنا من عالمين مختلفين نحن وأمّي ولا يمكن أن نلتقي لمدّة تزيد على الثلاثة أيّام.

كلّما تذكّرت هذه الحادثة تساءلت: لماذا أريد إثبات أنّني أنتمي لذلك العالم؟ لماذا أريد أن أنفض عنّي سنوات طويلة عشتها في الجانب الدفش من الكون، وأنتمي إلى ذلك الجزء الناعم المنساب كالحرير، وإن كان حريرًا من النوع الصيني الذي يخرج رائحة لاحقًا؟ لقد عشت حياة كاملة أقنع نفسي بأنّني لا أنتمي لأبي. إنّه بلا شكّ ليس أبي، فقد سمعته يسأل يارا يومًا عن أمّي وذلك الرجل. أسعدني الأمر بشكل لا يوصف. أخيرًا أستطيع تفسير شعوري باللاانتماء لتلك العائلة وإثبات أنّني من صنف أفضل. لكنّني لا أريد الانتماء لأمّي أيضًا.

أنتظر القطار الخفيف الذي يمرّ من أمام بيتي. تأكّدت من وضع هويّتي الخضراء داخل جيب الحقيبة كي لا ألفت لي النظر إذا فتحت الحقيبة لأمر ما، بجانبي تقف امرأة بيضاء نحيلة تضع

إيشاربًا أزرق مربوطًا إلى الخلف، وتجرّ عربة بها طفلان، بينما يقف حولها ثلاثة أولاد وبنتان، يضع الأولاد طاقيات صغيرة تغطّي أطراف رؤوسهم من فوق وتتدلّى خصل سوالفهم الطويلة على الجانبين، بينما ترتدي كلّ من البنتين تنّورة تشبه التنانير المدرسيّة ذات الزيّ الموحّد، ونظّارات طبِّيّة على شكل دوائر صغيرة، سألتني شيئًا ما بلغة عبريّة طلقة، فحرّكت لها وجهي مبتسمة وقلت بالإنكليزيّة إنّني لا أفهم لغتها. تكلّمت بضع كلمات وابتعدت فلحق بها أطفالها إلّا أصغرهم الذي ظلّ يحاول عقد رباط حذائه المنفلت. من بعيد اقتربت امرأة أخرى تضع إيشاربًا أخضر تربطه إلى الأمام وتجرّ عربة بطفل واحد، بينما يتحلّق حولها بنات وبنون يتعدّون الخمسة بملابس فوضويّة لا رابط بينها. وقفت الاثنتان حولي وراقب الأطفال من كلّ مجموعة بعضهم بعضًا، كمن تعوّد فعل ذلك. جاء القطار فركب الجميع دفعة واحدة. ابتعدت لأجلس في مكان بعيد من المجموعتين.

راقبت الأحذية جيّدًا وركبت قرب حذاء مريح من نوع «هش بابي». كنت بدأت أميّز بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين داخل القطار بنوع أحذيتهم، فالإسرائيليّون يعتنون بنوع الحذاء مهما كانت طبقتهم الاجتماعيّة، وهو أمر أعزوه لكونهم شعبًا يهتمّ بنفسه ويرفّهها، بينما لا يهتمّ الفلسطينيّون بذلك في العادة، فهم ينتعلون أيّ نوع أحذية من الصيني وحتى المقلّد، خصوصًا النساء اللواتي لا تعني الراحة لهنّ أيّ شيء. سهيل أوّل من جعلني أنتبه لنوع الأحذية الرخيص الذي أنتعله، والذي يسبّب لي وجعًا في الظهر، فهو لا يشتري إلّا أحذية بمئات الشواقل، الأمر الذي وجدته

عجيبًا، ومن يومها بدأت عندي تلك العادة.

كلّما ركبت القطار توجّست من كشف أمري، فإن رآني أحد من معارفي وخاصّة ليلى ومعارفها الموجودون في القدس سيقول بكلّ بساطة إنّني مطبّعة وإنّ عليّ أن أقاطع القطار لأنّه يمرّ من مناطق عربيّة ليصل إلى مستوطنة بيسجات زئيف، وإن انتبه الإسرائيليّون لكوني عربيّة فسأنال بحلقات لا حصر لها وسيسألني الحارس عن هويّتي. ورغم أنّني أملك تصريحًا للإقامة بسبب زواجي من مقدسيّ، فلن يمنعهم ذلك من البحلقة بي كما يفعلون مع تلك المرأة صاحبة الإيشارب الأخضر التي لا يهمّها ذلك، لذلك تعوّدت أن أجلس بطريقة محايدة لا تثير الشغب كلّما استخدمت القطار. رنّ أكثر ما يحرجني هو أن يرنّ جرس هاتفي كما يفعل الآن ويكون سهيل الذي لا يستوعب لماذا أتكلّم بالإنكليزيّة وأنا داخل القطار.

ـ يس.

ـ آت ذا تراين.

لا يفهم ما أقول، فأضع يدي على فمي وأقول وشوشة: «أنا بالقطار بدّك أشي»؟

ـ طيّب بحكيك.

قرّرت أن أفعلها اليوم. اسم المختبر الموجود في شارع يافا في الطابق الثاني من عمارة مقابل البلديّة، مكتوب على طرف الورقة التي سجّلتها لي جارتي أماني بعد أن أخبرتني أنّه مختبر

ممتاز، سيقومون بعمل أيّ فحص حتى لو لم يكن معي تأمين صحّي، مقابل مبلغ من المال.

قبل مدّة استفسرت من مستشفى المقاصد الذي يمتلك مختبرًا يجري هذا الفحص، لكن عامل المختبر ظهرت عليه ملامح الصدمة حالما خضت في التفاصيل، وصرت على الفور موضع شبهة وغمز، وأقفل معي الأمر فورًا وقال إنّه لا بدّ من طلب جنائيّ لإجراء الفحص. أي لا بدّ من وجود جريمة ومحضر من الشرطة. وتصوّرت نفسي أقدّم بلاغًا أقول فيه إنّني لست ابنة أبي المتوفّى.

مختبر إسرائيلي لن يمانع بالتأكيد، أقول لنفسي وأنا لا أعرف بأيّة طريقة سأفسّر الأمر، وبأيّة لغة، خصوصًا أنّ معظمهم يرفض الكلام باللغة الإنجليزيّة حتى لو كان يعرفها وأنا لا أعرف من العبريّة سوى كلمة «سليخا».

أطمئنّ على شعرة يارا الموضوعة في ظرف بلاستيكي داخل الحقيبة. بالأمس وبينما يارا المهووسة على أثاث بيتها، تصرخ على شيرين حين أوقعت المزهريّة المرصّعة بحجارة بيضاء عن الطاولة، دخلت إلى غرفتها ونزعت شعرة من فرشاة شعرها، وخبّأتها في الحقيبة. دخلت يارا عليّ وهي تخبرني أنّها وجدت ليندا على الفيسبوك، وأنّها لم تكمل حتى دراستها الجامعيّة، بدا عليها التشفّي. فليندا كانت تتفوّق عليها في تونس، حتى هانوي وزينب اللتان أعادتا التوجيهي أربع مرّات أكملتا دراستهما في النهاية، وإن فشلت الواحدة منهما في إيجاد عريس، كما تقول يارا. لكن ليندا التي انتقلت إلى بيروت بعد تونس بعد رفض أمّها

الحياة مع والدها في جنين، لم تفلح بعد ذلك في شيء.

لا أذكر أحدًا من زملائي في المدرسة رغم أنّني أراهم أحيانًا يجوبون رام الله أو يجلسون في أحد المقاهي والبارات التي انتشرت فجأة فأصبحوا هم أهمّ روّادها. معظمهم أعاد الدراسة الثانويّة مرّات ومرّات، ثم فشل في الحبّ والعمل وأشياء أخرى، حتى وجد له ركنًا يرضى به. الأستاذ رضوان معلّم العلوم هو الوحيد الذي أراه وألقي عليه التحيّة وهو ذاهب إلى مقرّ عمله في جهاز الأمن الوطني حيث يعمل منذ عودته، بينما سمعت أنّ الأستاذ محمّد رمضان معلّم اللغة العربيّة تمّ تفريغه على جهاز الشرطة وتقاعد منذ مدّة. الآخرون كأنّهم لم يكونوا، بل كأنّ تلك المدرسة التي هي بالأصل مصنع للأحذية في قلب المنطقة الصناعيّة في تونس العاصمة، لم تكن موجودة أصلاً، وكلّ من فيها تبخّروا في الهواء رغم وجود صفحة فيسبوكيّة تحمل اسم مدرسة القدس.

يقف عامل القطار أمامي فأشهر له البطاقة التي اشتريتها قبل أن أصعد. يضعها في الجهاز ويتأكّد أنّها صالحة، ثم ينتقل لفحص التذاكر الأخرى. يمرّ القطار من محطّة بيت حنينا إلى شعفاط حيث تملأ محالّ الخضرة واللحوم والفول والحمّص وأدوات السباكة طرفي الشارع. يراقب من ليس معتادًا رؤية هذا الكمّ الهائل من العرب في القدس في مكان واحد، بفضول كبير. أصناف من كلّ نوع تركب القطار: شابّة روسيّة بصحبة شابّ أشقر حدّ البرص وفليبينيّة تبرطم مع واحدة تشبهها وصومالي يجرّ عربة حاجيّات قماشيّة على عجلتين، ورجال بقبّعات كبيرة وبذلات متشابهة جدًّا

يحمل أحدهم كتابًا ويهزّ جسده على الكرسي المقابل لي، بينما يضع الجالس بقربي سمّاعتين بيضاوين على أذنيه ويستمع إلى الأغاني من الآيفون.

توقّف القطار عند محطّة السهل فصعد عدد من المراهقين الخارجين للتوّ من المدرسة. هكذا توحي حقائبهم المدرسيّة التي تثقل أكتافهم. جلسوا متقاربين وبقي اثنان منهم واقفين. كانوا يتهامسون بلغة عربيّة بينما رمقهم حارس القطار بنظرة لم تحد عنهم طوال الرحلة. أداروا له ظهورهم وأكملوا حديثهم عن أستاذ الرياضة الذي أجبر أحدهم على الجري نصف ساعة كما فهمت من القصّة.

توقّف القطار عند محطّة التلّة الفرنسيّة كما تقول الآلة المسجّلة التي تطلق صوتها عند كلّ محطّة، صعدت مجموعة من الفتيات الصغيرات، واحدة بدينة تلبس فيزونًا أخضر وبلوز فوشي قصيرًا، والأخريات يلبسن تنانير قصيرة متشابهة وتيشيرتات بولو خضراء وتني شوز نايكي مريحًا. أعلنت الفتيات حالة الفوضى في القطار. كنّ يتكلّمن ويغنّين ويصرخن بالعبريّة، بينما راقبتهنّ مجموعة الشباب باهتمام، وبدأوا هم أيضًا بإعلاء أصواتهم شيئًا فشيئًا حتى أصبح الأمر بعد عدّة محطّات ساحة من الصرخات والنكات والضحكات باللغتين العربيّة والعبريّة، لم تفلح كلّ بحلقات الحارس في إخمادها.

اهتزّ القطار فجأة فتمايلت الفتيات وسقطت إحداهنّ في حضن أحد الفتيان الجالسين على الكرسي، الذي تلقّفها بكلّ ممنونيّة.

كانت الضحكات قد علت أكثر مع الهزّة ووقوع الفتاة التي قامت عن حضن الفتى الوسيم بكلّ بطء، ما أشعل حماسة الأولاد الذين بدأوا بالتغامز عليه حسدًا، بينما تبرطم الفتيات أشياء لا أفهمها بصحبة الضحكات العالية. اقترب الحارس تلك اللحظة واضعًا كشرة كبيرة على وجهه وأشار إلى الفتى الذي بدا مرتاحًا الآن بأن ينزل رجله عن حافّة الكرسي، فأنزلها دون تعليق وأكمل كلامه مع الآخرين بحماسة أقلّ.

نزلت عند محطّة شارع يافا وأنا أحاول أن أجد تلك العمارة التي قالت لي أماني إنّها على شكل عمارة قديمة تمّ تجديدها مقابل مبنى البلديّة، لو أنّها أعطتني رقمًا لكان الأمر أسهل، خصوصًا أنّ كلّ شيء يبدو قديمًا ومجدّدًا هنا، حتى السكّة التي شيّدت حديثًا.

صعدت إلى البناية الأولى التي يشغلها في الطابق السفلي غاليري يضمّ عددًا من اللوحات الدينيّة. الدرج ضيّق ومعتم وينزل من الأعلى رجال وشباب بملابس متديّنين. خمّنت أنّها مدرسة أو مكان خاصّ فنزلت فورًا وانتقلت نحو البناية الأخرى. كان ريقي قد نشف، لكنّني لن أتوقّف لشرب أيّ شيء الآن، فقد قرّرت أن أصوم عن أيّ شيء تحسّبًا لطلب ذلك في حال إجراء فحص دم.

العمارة الثانية بوّابتها غير واضحة، فهي تبدو كعمارة من نوافذ لا باب لها. درت حول المكان حتى وجدت بابًا حديديًّا بشبابيك من شبك حديدي رمادي اللون. الباب مغلق ولا يفتح إلّا من الداخل. حاولت رنّ جرس البوّابة السفليّ. ردّ عليّ أحدهم بالعبريّة فطلبت باللغة الإنكليزيّة أن يفتح أحد الباب. بعد عدّة

دقائق فتح الباب وصعدت نحو الطابق العلوي ورجلاي تصطكّان تحتي.

المختبر يعجّ بالإسرائيليّين المتديّنين. الجميع يلبس الملابس الدينيّة، نساء حوامل ورجال مسنّون ونساء مقعدات على كراسي نقّالة. اقتربت من طاولة دائريّة في المنتصف لاستقبال الحالات، جهّزت الكلمات الإنكليزيّة في رأسي بعناية:

ـ هلو كان يو سبيك إنغليش؟

ـ ما.

ـ كان يو سبيك إنغليش، آي نيد تو دو أتيست.

ـ ما، لو إنغليش لو.

ـ أرابيك؟

ـ لو لو.

لا ردّ ولا صدّ، لا تعرف تلك الروسيّة الشقراء التي تضع نصف مكياج الأرض فوق عينيها أيّة لغة يمكن التفاهم من خلالها. أدرت رأسي في المكان، علّي أجد أحدًا عربيًّا يترجم ما يدور بيننا، لكنّ الصوت أتاني من حيث تقف الموظّفة الروسيّة: امرأة سمراء في نهاية الأربعين بشعر قصير أسود أدكن، قالت لي بلهجة عراقيّة مكسّرة:

ـ شنو؟

ـ مرحبا، بتعرفي عربي؟

ـ شويّة.

ـ بدّي أعمل فحص.

ـ كوبات حولييم؟

ـ ما معي تأمين.

توقّفت وبدأت تترجم تلك اللحظة للموظّفة الروسيّة.

ـ بدّي أعمل فحص DNA إلي ولأختي.

ـ وين أختك؟

ـ معي شعرتها.

ـ أيّ شعرة؟

ـ شعرة من راسها.

ـ وين راسها؟

ابتسمت دون أن تنتبه هي على غرابة السؤال وقلت: «فوق جسمها»!

ـ وليش بدّك تعملي؟

ـ لأنو بدّي أتأكّد أنو خوات ١٠٠٪.

توقّفت هنا وبدأت بالترجمة للموظّفة التي لم تبدِ أيّ اهتمام بالموضوع وقالت لها شيئًا أعادته المرأة عليّ:

ـ وين أبوكي؟

ـ مات.

ـ وإمّك؟

ـ بلبنان.

مرّة أخرى ترجمت ما قلت ثم عادت وسألتني:

ـ وليش بدّك تعملي فحص؟

ـ زمرة دمي

ـ شو؟

AB+

ـ واختك؟

ـ O+

ـ وأمّك؟

ـ A+

ـ وأبوكي؟

ـ O+

كان يبدو استجوابًا شخصيًّا ليس له علاقة بالأمور الطبّيّة فلا أحد يسجّل شيئًا ولم تكن تترجم شيئًا.

ـ بتعملو الفحص هون؟

ـ هلأ بنشوف، أعطيني هويّتك.

بدأ الأمر بالتعقّد الآن. أشهرت لها هويّتي وأنا أسألها ما أهمّيّة هويّتي في الموضوع وأبرز طرف تصريحي حتى لا أقع بمشكلة، دون أن أتلقّى منها أيّة إجابة. أخذتها منّي دون تعليق ثم برطمت شيئًا مع الموظّفة الأخرى، وتكلّمت بالهاتف. عادت بصحبة رجل في نهاية الخمسين، أصلع مفتوح الصدر بعضلات مفتولة ثم أخبرتني أنّه سيسألني بعض الأسئلة وستترجم هي لي فأجبتها بالإيجاب.

ـ ليش بدّك تعملي الفحص؟

ـ بدّي أتأكّد أنّو أنا أخت أختي (كانت هذه هي الإجابة الوحيدة المنطقيّة فأبي ميت وأبي الذي أتوقّع أنّه أبي كذلك ميت وأمّي هي أمّي في كلّ الأحوال. الوحيدة التي عليّ أن أؤكّد أو أنفي نوعيّة القربى بيننا هي أختي).

ـ وين أختك؟

ـ ببيتها؟

ـ بتعرف أنّك بدّك تعملي الفحص؟

ـ لأ.

ـ أمّك وين؟

ـ ببيروت

ـ ليش؟

ـ لأنّها من هناك.

ـ وأبوك؟

ـ ميت.

ـ وأنت وين ساكنة.

ـ بالقدس.

سكت الرجل، ثم توجّه بكلامه نحو الممرّضة وعاد إلى غرفته. طلبت منّي المرأة أن ألحق بها.

دخلت غرفة، ووضعت أمامي استمارة باللغة العبريّة وطلبتْ أن أملأها، رغم علمها أنّني لا أعرف شيئًا عن العبريّة. وطلبتُ مساعدتها فقالت إنّها ستعود بعد قليل.

حاولت أن أتذكّر سبب وجودي في هذا الموقف الغريب. وأنا أبحلق في الاستمارة المكوّنة من خمس أوراق تحمل رسم اللغة الغريبة عنّي كلّيًا، هل سأثبت هنا حقًّا أنّ يارا هي أختي أم لا؟ هل هناك استمارة تثبت عكس ذلك أو صحّته. كلّ ما يخطر لي الآن تلك الوسادة المبلولة التي جمعت دموعي بدموعها حين تركنا أبي عند بيت جيران لنا في تونس وذهب إلى عمان لإجراء عمليّة في قلبه. كان السرير مفروشًا برمل البحر، يبدو أنّ أحدهم كان في البحر ومسح قدميه وجسده فيه ولم ينتبه أحد لذلك السرير المهجور في الشقّة المفروشة التي يسكنها عمّو زهير وزوجته في الطابق السابع لبنايتنا، لن يعرف أحد ماذا يعني أن ينام فوق سرير ملآن بالرمل الناعم إلّا إن جرّب ذلك. ملأنا الوسادة دموعًا يارا وأنا، ثم بدأنا نتحدّث عن أشياء تافهة ثم أشياء سخيفة ثم وقعنا في

ضحك متواصل أتعبنا فنمنا وحلمنا حلمًا مشتركًا بالبحر.

عادت المرأة بصحبة شابّ يلبس ملابس تنظيف ويحمل بيده ملمّع زجاج وشقفة قماش، وقالت إنّه سيساعدني على ملء الاستمارة.

الشابّ الخليلي الذي كان سعيدًا بلعبه دور المترجم، حاول بكلّ الشهامة المتوفّرة في رجولته أن يقدّم لي المساعدة الممكنة، سواء أطلبت ذلك أم لم أطلب. بدا مذهولاً وهو يكتب في الاستمارة اسم الفحص وسبب قيامي به، وبدأت أشعر بالندم الشديد لإخباري إيّاه بالأمر خاصّة وهو يسألني أسئلة عن اسم عائلتي وأين أسكن ورقم هاتفي وهاتف معرّف لي وقال إنّه يسكن قريبًا منّا في شعفاط.

لم أعد أريد سوى الخروج من هذه الغرفة. طلبت منه أن يسأل الممرّضة لماذا تضعني هنا وعن رغبتي في الخروج، لكنّه تجاهل طلبي وهو يسأل عن والدي وأمّي ولماذا تطلّقا وأسئلة أخرى لم تكن موجودة في الاستمارة.

عادت المرأة وطلبت أن أنتظرها قليلاً. شعرت بالاختناق بالإضافة لمعدتي التي كانت تقرصني من الجوع والتوتّر. أخبرتها أنّني لا أريد أن أفحص اليوم وسآتي في يوم آخر، لكنّها قالت إنّني أضعت وقتهم على لا شيء، وهذا لا يجوز، وإنّ عليّ استكمال الإجراءات.

لم أجر الفحص لأنّني لا أملك الألفي شيكل ثمنه. خرجت مسرعة وشكرت فقر محفظتي التي ضمّت خمسمائة شيكل ظننت

أنّها ستكون أكثر من كافية. اشتريت علبة بسكويت محشي بالكريمة أكلتها كلّها وأنا أنتظر القطار للعودة.

جلست بجانب حذاء شابّ يلبس حذاء كلارك، كانت ساعة عودة الموظّفين من أعمالهم، والقطار يعجّ بالناس، أغمضت عينيّ وأنا أحاول أن أنسى ما حصل في تلك الغرفة، وأفكّر بما ستقوله يارا لو علمت ما فعلت، هي تقول لي دائمًا إنّني سأفضحها في عمل أحمق يومًا ما، لأنّني أعتقد أنّ الحياة سهلة وأنّني أستطيع فعل كلّ ما أريد، وهي مقتنعة بأنّ الناس وحوش وعلينا مهاجمتهم لا منحهم الفرصة للاستقواء علينا بإظهار نقاط ضعفنا.

وقف حارس القطار أمامي لفحص التذكرة، فتّشت على التذكرة في حقيبتي وقدّمتها له، وضعها في الجهاز ثم برطم شيئًا لم أفهمه بالعبريّة. ترجم بالإنكليزيّة بعد أن سألته بالإنكليزيّة: وات بأنّ التذكرة غير صالحة لأنّ الساعة والنصف التي يسمح لي بالتجوّل بها انتهت منذ ربع ساعة، وأنّه سيحرّر لي مخالفة. قلت له إنّ هذا غير عادل، لكنّه طلب هويّتي بكلّ هدوء.

تدخّل شابّ جالس في الصفّ الآخر وقال بعض الكلمات، وبدأت العيون تتّجه نحوي، لكنّه طلب هويّتي مرّة أخرى. أخرجت هويّتي من الحقيبة وأخرجت منها التصريح بشكل تلقائي وأنا أشعر بنظرات حذاء الكلارك تتوجّه صوبي مستنكرة.

أحسست بالغضب الشديد: عليّ تسديد مخالفة بمئة وثمانين شيكلاً مقابل تأخير ربع ساعة، أنا العاطلة عن العمل منذ شهرين. مدّ لي الشابّ الذي كلّم الحارس رأسه، وقال بالعربيّة: كلاب بس

بدهم يجمعو مصاري من هالعرب.

بعد أن سجّل بعض المعلومات من هويّتي قال لي الحارس وهو يسلّم إليّ المخالفة، إنّه كتب اسمه ورقم هاتف، وإنّني أستطيع التشكّي عليه أن رغبت بذلك. نظرت إلى المخالفة فوجدت الاسم مكتوبًا باللغة العبريّة.

نهضت من قرب حذاء الكلارك وأنا أشعر بأنّني سأحدث فضيحة بدموعي التي بدأت تنهمر على وجهي. سيقول الجميع إنّني أبكي على المئة والثمانين شيكلاً. أنا في الحقيقة كنت أبكي بسببها ولشعور آخر قبض قلبي. وقفت ملصقة رأسي بباب القطار الزجاجي، أرى السيّارات والأعمدة والناس يعبرون مسرعين عنّي وأنا الملاصقة للباب، أشعر ببرودة الزجاج على جبيني وسخونة دموعي التي بدأ فمي بالتقاط ملوحتها واحدة واحدة.

شيرين تأتي من بعيد ممسكة بيد سهيل، تجرّ حقيبتها الصغيرة خلفها فتلمّ وسخ الشارع كلّه. نلتقي عند مدخل البناية، فتهجم عليّ شيرين وتسألني عن لعبة دورا التي وعدت بشرائها صباحًا. بالطبع لم تكن دورا على بالي هذا اليوم فوعدتها بشرائها غدًا الأمر الذي أقنع شيرين بطلب صحون وطناجر ومطبخ. «طارت الخمسمية شيكل»، قلت لها وأنا أنظر باتّجاه سهيل الذي لم يسألني عمّا حدث معي.

ـ بدكاش تعرف شو صار؟

ـ شو؟

ـ ولا إشي.

ـ مأنا حكتلك بلا هالهبل.

سألني سهيل إن ذهبت لأطعم أمّه طعام الغداء أم لا. أنا لم أفعل بالطبع، وحتى لو ذهبت فهي ستقول بكلّ القناعة الممكنة إنّها أكلت، وتذهب الخمسة شيكل ثمن وصولي إليها بالفورد بالأرض.

أحاول أن أجعل سهيل يستمع لما حدث معي باهتمام، لكنّه لا يلتفت نحوي ويتابع شيئًا ما على جهاز الآيفون، وعندما أعترض على تجاهله بحردي عن استكمال الحديث، يقول إنّه معي ويستمع لكلّ كلمة قلتها.

قلت ليعرف أنّني سأدبر الألفين شيكل وأجري الفحص قريبًا.

التفت نحوي وقال لي وهو يضحك: فاتورة الكهربا أهمّ بكتير من أبوكي وأمّك.



## ملكة ـ نينا

متى ستكفّ عن تبليل ملابسها؟ لقد رأيتها. أعلم أنّها تتعمّد الجلوس على سريري وهي تعلم أنّ ملابسها مبلّلة. لماذا عليّ تحمّل كلّ هذا الضراط الذي تنشره في أرجاء البيت دون حياء؟ فقط لو أستطيع أن أجعلها تسمع صوتي لقلت لها: ولك نينا بطّلتِ تستحي بتشخّي عحالك.

لن تستطيعي استغفالي، كما تفعلين بسهيل.

تقولين له بلهجة مسكينة، إنّك تنسين ولا تعرفين ما الذي تفعلينه، أراك وأنت تضعين حبوب الدواء في علبة النيدو الالتي ضربها الصدأ كلّما أعطاك إيّاها سهيل، بعد أن يصيح ويصيبه وجع في الرأس لأّنك تنسين تناولها، تضربين كفًّا بكفّ وتقولين: «نسيت»، ثم تذيّلين ذلك بعبارات من قبيل: مهي خالتك ما خلّت حبّة دوا إلّا أخدتها، وماتت.

ثم تمسكين ما يعطيك إيّاه من حبوب، وتذهبين إلى المطبخ لشرب الماء، وتضعينها في علبة النيدو بكلّ هدوء وتصميم.

لن تستطيعي خداعي نينا، ولن أصدّق أنّك «بتضرطي وبتنزل الخرية» وأنت جالسة على الصوفا كما تقولين، حتى إنّني أراك تبتسمين وأنت تفعلينها، ثم تدخلين إلى غرفتي وتجلسين على سريري الذي لم تجرُئي يومًا، لا أنت ولا أيّ أحد، على الجلوس عليه بملابسكم التي لامست أسطحًا أخرى. تضعين الآن مؤخّرتك المليئة بالخرا، وتمسحينها به، حتى إنّني ضبطتك وأنت تستيقظين في الليل وتدسّين جسدك الذي يفوح بتلك الرائحة المعفّنة وتنامين فيه. كيف أمكنك أن تفعلي ذلك؟

تحاولين إقناع الجميع بأنّك تنسين، لكن سهيل اصطحبك إلى الطبيب وأجرى لك فحص ألزهايمر ولم تكوني مصابة به. لم يقتنع هو وأصرّ أنّك مصابة بألزهايمر، وسعدت أنت لأنّه لا يزال يهتمّ بك، ولا يوجد لك منافس في حياته الآن. رأيتك وأنت تدخلين غرفتي. نظرت إلى صورتي المبروزة فوق الصوبا ورفعت لي إصبعك الوسطى.

أراقبك وأنت تنامين ولا أنام أنا. تستيقظين صباحًا خائفة، تنظرين إلى صورة العذراء، وتدعين لها بأن تغفر ذنوبك. تتوجّهين إلى المغسلة، تشطفين وجهك وتفركين أسنانك الأماميّة بطرف يدك وتركّبينها في فمك دون أن تنظري إلى المرآة، لكن منظرك لا يصبح أقلّ فزعًا.

تجلسين على الصوفا لتنامي من جديد، حتى تطرق الباب أمّ سامي بطرف عصاها الخشبيّة لتستفسر هل متِّ أم لا. حين تراك من طرف الباب الزجاجي تقول: «لسّا ما متّي»؟ فتردّين عليها:

«قاعدة عقلبك»، فتدعو عليك أمّ سامي بالموت لتستردّ هي بيتها وتؤجّره بمئات الدولارات، بينما تخبرينها، كما تخبرينها كلّ يوم، أنّك لن تخرجي من البيت إلّا على ظهرك، فتردّ عليك هي بلعن اليوم الذي استأجر فيه زوجك البيت قبل أربعين عامًا، فتقولين أنت كأنّك لم تسمعيها، إنّك دخلتِ البيت عروسًا وستخرجين منه إلى القبر.

ثم تشربون معًا القهوة التي تعدّها مرّة الحلّاق في فسحة البيت الخارجيّة، وتسرد كلّ واحدة قصصها التي لا علاقة لها لا بالبيت ولا ببدل الإيجار، وهي قصص سأسمعها تتكرّر دون أن يكون لي الحقّ في التدخّل في مجرياتها، خصوصًا عندما تبدئين بتحريفها وإدخال قصّة بطيز قصّة أخرى، فتسردينها على هواك.

تسردين أربع قصص، تكرّرينها طوال اليوم.

قبل أن أتحوّل إلى ما أنا عليه، كانت قصصك أكثر عددًا وإمتاعًا، فهي غالبًا ما تكون قصصًا عن الحموات وزوجات الأبناء التي كما تقول إحدى الحكايا، حتى لو كانت ابنة، فإنّها «الوجه وجه بنتي والقفا قفا كنتي». وقد تروين قصصًا أخرى عن حموات يحوّلن حياة زوجات أبنائهم إلى جحيم، وأنت بذلك تؤكّدين على كونك الحماة المثاليّة، فأنت لم تطلبي من أيّ من زوجات أبنائك الثلاث منحك شقفة قماش مزيّنة بالدماء لإثبات طهارتها ليلة الزفاف. أمّا القصّة الثانية فهي عن الأخت التي حبلت من زوج أختها التي كانت تسكن في بيتها فصارت الأختان تنجبان كلّ سنة ولدًا ويتمّ تسجيل الأولاد في هويّة الزوجة على أنّهم أبناؤها

جميعًا، ثم تؤكّدين على وجود الاثنتين في البيت نفسه حتى الآن، وأنت تنظرين إليّ بطرف عينك الغاضبة.

وغالبًا ما تردّدين قصّة قارئة الكفوف التي تعتبرينها إحدى القصص السحريّة الغامضة، التي تؤكّدين فيها أنّ زواجك من مسلم هو أمر قدري خارج عن إرادتك، فقد أكّدت لك العرّافة الأمر قبل أن تعرفيه بخمسة عشر عامًا، عندما قالت إنّك ستتزوّجين من «غريب» وستنجبين بالمفرد، إمّا واحدًا وإمّا ثلاثة وإمّا خمسة، ثم تكشفين حقيقة حدوث ذلك حقًّا، عندما تزوّجت بمسلم وأنجبت له ثلاثة شباب.

قصص كثيرة تلك التي كنت أتدخّل لتصحيحها لك إن نسيت الحبكة في إحداها، أو تداخلت اثنتان معًا، فأردّ بثقة من يملك ذاكرة من فولاذ «ولك مش هيك القصّة»، ثم أعيد القصّة بحذافيرها دون زيادة أو نقصان، فتردّين أنت: يمكن، شو بعرفني، هو أنا عقلي دفتر؟

وقد ينشب خلاف وقد لا ينشب بحسب أحداث ذلك اليوم. وقد أتحمّس أنا أيضًا في منتصف إحدى القصص كما يحدث الآن وأنا أراقبك تسردين قصصك على النسوة الملولات اللواتي ينتظرن دورهنّ للتشكّي والتذكّر والتذمّر، فأروي قصّة مختلفة تمامًا، كقصّة رأس الخروف الذي وضعه لي أحد أعيان الأردن على صدر المنسف حين ولدت له زوجته التي أنجبت ولدًا ذكرًا في مستشفى الهوسبيس. أو قصّة حلمي باسم رائد وتهجئته لأبو سهيل وأنا متعجّبة من هذا الاسم الذي رأيته يكتب في دفتر تسجيل المواليد

الجدد، ولم أعرف معناه. كنت أظنّ أنّ معناه راقد أي نائم، فقال لي أبو سهيل أنّه كاسِم جمال عبد الناصر، رائد الأمّة العربية، الأمر الذي جعله يتحمّس للاسم ويطلقه على ابنه الثاني.

حين كنت أسرد قصصي تلك، لم تكوني تجرئين على التفوّه بنصف كلمة. كنت تجلسين وتصفنين في التلفاز وقد تتجوّلين في المنزل دون هدف.

الآن، تردّد نينا القصص التالية دون ملل: الأولى أنّها سألت الخوري وقال إنّها تحتاج إلى ورقة طلاق من أبو سهيل، حتى يتمكّن الخوري من إعادة عمادها من جديد، وعندها تستطيع أن تعود إلى المسيحيّة ويمكن أن تدفن في مقبرة الأرثوذوكس بجانب قبري، ثم تنظر إلى سهيل وتقول كلمات مرتّبة: «مش تدفنوني عند المسلمين، والله بقوم من قبري. ومش تكتب عقبري اسم أبوك بتكتب كاترينا لامبي خورجيولي، بنت لامبي خورجيولي»، فيهزّ سهيل رأسه وهو لا يزال يتابع لعبة ما على جهازه النقّال. وقد يجيب بإجابة أخرى إن كان في مزاج يسمح بذلك فيقول لها ممازحًا: بس هيك بتكوني مرتدّة، وبدبحوكي المسلمين. أصلاً أنت أكتر حدًّا مسلم، لأنّك رحتي برجليكي عالمحكمة وأسلمتي، الباقي نولد لقى أهلو مسلمين وصار مسلم.

تحتدّ نينا وتقول: «أنا مسيحيّة يلعن هديك الساعة اللي ضحك على عقلي وخلّاني أتجوزو. صحيح إنّك بزرة مسلمين، بزرة نسا»، فيضحك سهيل ولا تضحك نينا.

أمّا قصص نينا الأخرى فتنحصر في السؤال عن راتب

الشيخوخة كلّ أوّل شهر، الذي كثيرًا ما يضيع حالما تتسلّمه من بنك لئومي في شارع صلاح الدين وتدخل به المنزل. لا يعرف أحد أين تذهب النقود، لكنّ الجميع متأكّد أنّها في مكان ما في البيت، لأنّ نينا تخفيها وتنسى أين وضعتها، أو لأنّها تعرف ولا تقول. المهمّ أنّ الجميع يبحث عن تلك النقود التي لا يجد لها أحد أيّ أثر، فتذهب نينا في اليوم التالي إلى البنك الذي يؤكّد لها أنّها قبضت المعاش في اليوم السابق، لتعود في حالة بحث مكّوكيّة على جزادينها التي تتعدّى الخمسين، والتي تضع كلّ واحد منها في ظرف نايلون أبيض، ثم تلفّه بظرف آخر أسود.

لكنّني أعرف أين تضعين الألف شيكل كلّ شهر. أراك تضعينها في جزدانك الأحمر الذي لا يراه أحد، ثم تغلّفينه بكيس نايلون أبيض تلحقينه بواحد أسود وتضعينه أسفل زجاجة الويسكي نصف الفارغة في خزانتي.

بعد ساعة تعودين لتغيير مكانه، فتضعينه أسفل فراشك، ثم تبدأ عمليّة البحث من جديد فتتّصلين بسهيل لتخبريه أنّك تريدين أن تسحبي الشيخوخة، فيخبرك أنّك ذهبت اليوم إلى البنك، وسحبتها، لكنّك تؤكّدين أنّك لم تفعلي ولا تجدين النقود.

في البداية كان سهيل يبحث عن تلك النقود في كلّ مكان، ثم شكّ في أنّ من الممكن أن يكون هناك من يسرقها، لكنّه في النهاية تيقّن أنّ أمّه تخبّئها في مكان ما وتنسى، رغم أنّها تصرّ على أنّها ليست معتادة تخبئة النقود، وأنّها لا تدخل غرفتي ولا تعبث بالخزانة حتى بعد موتي.

أمّا القصّة الثالثة فهي قصّة أمّنا، وتقول الحكاية كما تسردها نينا على جمانة كلّما أتت لزيارتها، أنّ أمّنا ـ وتذيّل الكلمة بعبارة الله يغضب عليها ـ تزوّجت من مصري قبطي بعد أن تطلّقت من أبي الذي كان يكبرها بخمسة عشر عامًا.

«كان بيغار، وهي كانت حلوة». وكان يضربها ويشتمها بأبشع الشتائم. «كان لسانو وسخ الله يرحمو» وتعني أبانا.

ثم تشطح في موضوع آخر «ملكة السبب في زواجي بأبو سهيل. لو لم تشتر قطعة الأرض ذلك اليوم، لو لم تأخذني معها أنا ومريكّا لما كنت عرفته وصار اللي صار».

يحمرّ وجهها وهي تكمل حديثها عن أبو سهيل، الذي كان سمسار أراض في تلك الفترة: رأينا إعلانه في السينما، فقرّرت أنا ومريكّا أن نتّصل به لنشتري قطعة أرض بعد أن بدأنا بتحويش بعض من مرتّباتنا في المستشفى. «صار يحكيلي كلام حلو، وياخدني على السينما، وبيوم أخذني على مكتبو في رام الله. كان طويل زيّ رشدي أباظة، مسكني من خصري وباسني على تمي ومن يومها غمزت الصنارة وهربت معاه وأسلمت وتزوّجنا».

ثم تلعن ذلك اليوم وهي تقول: «بزرة مسلمين نجسة. الله يلعن أبو اليوم اللي شفتو فيه. أنا يتّهمني أنّي سرقت دهب الخدّامة»!

ثم تسرح قليلاً وتكمل: «أبوي غضب عليّ لأنّي تزوّجت مسلم، وفضحونا اليونان، وكان رح يتبرّا منّي بالكنيسة زي معمل أبو حنّا ببنتو، بس ملكة أقنعتو أنّو ما يعملها».

ثم تلعن أبو سهيل الذي تزوّج سكرتيرته في عمان وتركها لتعيش وحدها في هذا البيت الكبير، وتؤكّد أنّها ستذهب إلى المحكمة في البلدة القديمة مع مريكا لتطلب الطلاق، وتؤكّد أنّها ستفضحه في الصحف فتنشر إعلانًا مفاده أنّ «فيصل خليل شقير ابن أبو فيصل ترك زوجته من شان الخدّامة اللي هي أخت مرتو». ثم تضحك وتسأل سهيل إن كانت تستطيع أن تفعل ذلك أم لا؟

لا يردّ سهيل في العادة لأنّه لا يستمع لنصف ما تقوله، وأحيانًا أخرى يردّ فيقول إنّها لا تستطيع، فتسكت قليلاً، ثم تؤكّد أنّها ستفعل ذلك غدًا.

* * *

أجلس قبالتك وأنا لا أفهم سرّ ما تفعلينه، «يا نينا ردّي»، لا تردّين، لماذا لم تعودي تسألين سهيل عمّا يفعله أبوه؟ لماذا لا تحتجّين على عدم اتّصاله؟ لماذا لا تسبّين أباه وأمّه؟ لماذا لا تفعلين أيّ شيء؟ أجلس قبالتك رغم رائحتك التي تغطّ النفس.

«رح يطلع الدود من طيزك يا نينا».

أسمعك تردّين في عقلك: «النظافة خلّتك تصمتي».

تتكتك الساعة لتكسر صمت غفواتك المتقطّعة على الصوفا. التلفاز لم يعد يأتي بأيّ مسلسل أو فيلم، «افتحي هالتلفزيون خلّينا نتسلّى».

تردّين عليّ بشخرة، وأنت ترفعين رجليكِ وتنامين جالسةً، رأسك يتدلّى على جانبك وريالتك تشطّ من طرف فمك.

«افتحي الشبّاك يا نينا، العفونة أكلت البيت».

تديرين وجهك إلى جهة الحائط، حيث صورة سهيل وهو في الخامسة يلبس القفطان اليوناني والطربوش.

«جهّزي الفانوس عشان تجيبي النور يا نينا».

تعدّلين جلستك على الصوفا، تضعين رجلاً على رجل، تغرسين يدك في خدّك وتعودين إلى النوم.

«أضيئي الضوء يا نينا، بتعرفيني بحبش العتمة».

تتركينني في الصالون وتجرجرين نفسك باتّجاه الغرفة.

«لسّا الساعة سبعة يا نينا».

تنظرين نحو صورة العذراء فوق سريرك.

«تصبحي على خير يا أمنا».

«التلفون بيرن يا نينا إلحقي».

تركضين نحو الهاتف كطفلة في الرابعة،

«آه حبيبي، أكلت».

«ولك مأكلتيش».

«أه، شربت الدوا».

«مشربتيهوش».

«حبتو لونها حمرا».

«ولك يا كذّابة تكذبيش عالولد، فوتي أشربي دواكي».

«عالكنباية يما في غنى عنها».

«ولك كنت رايحة تنامي، أحكيلو، هاتي هالتلفون لأفرجيكي».

تغلقين الهاتف.

تردّدين الجملة التي تحدّثين بها نفسك بعد كلّ مرّة يتّصل بك.

«ملزّق بطيز مرتو»

ثم تعودين لتندسّي في فراشك، وتشخرين على الفور.

«بتتذكّري لمّا كنّا نهرب من المدرسة ونطلع عالمقبرة ندخّن مع مريكا»؟

«المديرة كشفتنا وحكت لإمّك».

«بس أكلتيها يومها، ضربتك لتخّيتي».

«أنت اتمسكنتي وطلعت فيي».

«مأنا الصغيرة».

«أيمتى بدّك تحكيلو».

«نينا أصحي صارت الصبح».

تدخل أمّ محمّد الباب، فتثير زوبعة في البيت النائم. تتحرّك كالصاروخ تريد أن تلحق بخمس عجائز أخريات ينتظرنها بفارغ الصبر، لتريح لهنّ مؤخّراتهنّ من الفوط. تدخل أمّ محمّد وهي

تضع الشنطة على خصرها. تخلع حجابها بحركة واحدة إلى الخلف، تفتح كيس النايلون الأسود الذي تحمله بيدها، تخرج كعكة تحضرها من مخبز الكعك في المصرارة، أميّزها من رائحة السمسم المحمّص، تفسخها من النصف، وأنت تصرّين أنّك أفطرتِ، وهي التي كشفت ألاعيبك كما كشفها الجميع تتحرّك كأنّها رجل آليّ لا يسمع من كلامك شيئًا. تدحش لك الكعكة في كفّك، ثم تنتقل بسرعة إلى الحمّام تفتح ستارة البانيو فتهرّ كتلة من الطلاء المتقشّر المليء بالعفن من السقف العالي وتستقرّ على شعرها. تسرع خلف باب غرفة نومك، تحضر منشفتك الموردّة المهترئة التي تصرّين على استخدامها رغم امتلاء الدولاب الحديدي بالمناشف والبشاكيل. تضع المنشفة في الحمّام، وتحضر لك فوطة جديدة وفيزون صوف أسود، تضعهما فوق السرير. تعود إليك، تنزع من يدك شقفة الكعكة التي لم تنقريها بعد، وتبدأ بسرد كلماتها المعهودة لتشجيعك على الحمّام الذي ترفضينه بشدّة مصرّة على أنّك تتشّطفين كلّ يوم وأنّك متعمّدة «والمتعمّدين ما بتطلعلهم ريحا زي المسلمين». تضحك أمّ محمّد وهي تسحل لك البنطلون وتنزع الفوطة بحركة سريعة ثم ترفع القبّة الخنق الحمراء نحو عنقك، فيتكوّم شعرك الرمادي إلى فوق على شكل مكنسة عثّة. تجرّك بقبضة يدها الجبّارة نحو البانيو وأنت تصرخين وتشدّين شعرك وتضربين وجهك بكفّ يدك الطليقة ممانعة ومصرّة على أنّك استحممتِ بالأمس وأنّك معمّدة، لكنّها تعلّمت أنّ عليها أن لا تناقش العجائز في أيّ أمر. كلّ كلامهنّ على حقّ لكنّه غير مهمّ، فلا أحد يهتمّ بما سيقلنه. الأبناء الذكور يصرّون على مواضيع

محدّدة أهمّها شرب الدواء في مواعيده، وتناول الطعام، البنات يلتفتن إلى نظافة البيت وتسريح الشعر، تدرس حالة كلّ واحدة وتتعامل معها على هذا الأساس، ينفتح الدشّ وتضع نينا تحته فورًا.

«خلّي المي تسخن».

أحاول أن أصرخ على أمّ محمّد التي لا وقت لديها حتى لهذا الأمر. نينا لا تشعر ببرودة الماء. تقف مستسلمة في نهاية الأمر متهدّلة كما كلّ شيء فيها. تضع أمّ محمّد القليل من الشامبو على رأسها وتفركه بمعصمها، وهي تردّد على نينا كالأطفال:

«أيوه يا حلوة هيك بتصيري بتجنني».

تنشّفها بضغطات سريعة من المنشفة على جسدها، وتقودها من يدها عارية نحو الغرفة: «افتحي رجليكي».

تفتح نينا رجليها فتضع أمّ محمّد الفوطة وتلبسها الفانيلّا والبنطلون وقبّة خنق زرقاء بعد أن تطلب منها بيجاما خفيفة لأنّ الحرّ دخل، فتنفي نينا وجود أيّ بيجاما لديها وتؤكّد أنّها تشعر بالبرد. تضع أمّ محمّد المجفّف بالكهرباء. توقف نينا بين رجليها وتبدأ بتنشيف شعرها كأنّها تسابق الريح. بعد دقيقة تعطيها حبوب الدواء الصباحيّة، تضع شالها على رأسها، وتسرع نحو الحجّة أمّ فتحي التي تسكن آخر شارع النبي يعقوب.

تجلس نينا على الصوفا، ثم تنهض فجأة نحو الباب تتفقّد أمّ سامي التي لم تعد تدقّ بابها لتسأل إن ماتت أم لا، ثم تعود لتجلس على الكنبة.

«وينها هالكرنيبة مش مبيّنة»؟

وبعدها تصمتين، نينا، تصمتين نهارا كاملاً، لا يسمع فيه أيّ صوت.

يفتح سهيل الباب، تلحق به شيرين وجمانة:

«كاليميرا ماما».

«كاليميرا حبيبي».

«المسيح قام».

«حقًّا قام، ليش يما شو اليوم»؟

«اليوم العيد يما محكتلك اجهزي بدنا نطلع»؟

«بعرفش».

«قومي إلبسي نطلع نتغدا».

«لأ يمّا بقدرش اطلع».

«ليش شو وراكي»؟

«وخالتك»؟

«يمّا خالتي إلها أربع سنين ميتة».

أركب بجانب سهيل، بينك وبينه، أضع رأسي على كتفه، هو المشغول بالطريق وبقضم أظافره: «بدكاش تبطّل هالعادة»؟

جمانة تمسك ببطنها وتضع يدًا على فمها كمن يرغب في التقيّؤ: «حامل يا بنت، بالأسبوع الثامن».

نينا تفتح سحّاب الحقيبة كلّ خمس دقائق، تفتّش في جزادينها الأربعة عن مفتاح البيت، تجده فتغلق السحّاب، ثم تعود لتفتحه من جديد لتعيد جولة البحث عن المفتاح.

تمشي السيّارة في طريقها إلى مطعم «رؤوف وأثينا» على شطّ يافا. تنام شيرين وجمانة في الخلف وتحدّق نينا بحقيبتها باحثة عن المفتاح، بينما ينفعل سهيل على سائق السيّارة التي أمامه، الذي يسدّ عليه طريق التجاوز.

«تلّ أبيب ٣٤ كلم». كانت تظهر اللافتة الكبيرة الخضراء على حافّة الطريق، باللغتين العبريّة والعربيّة.

استيقظت شيرين تبكي «بدّي نونو». عدلت جمانة من جلستها تطلب من سهيل التوقّف عند حافّة الطريق، لكنّ سهيل المهووس بقوانين السير لا يريد أن يتوقّف سوى في المحطّة التالية.

«هلأ بتعملها»، قالت له جمانة التي لا تحتمل هرموناتها أيّ جدال في الوقت الحالي.

أوقف سهيل السيّارة قرب إشارة تشير إلى مستوطنة «موديعين». نزلت شيرين بفرح المنتصرة، ثنت ركبتيها وأبعدت مؤخّرتها عن قدميها، كالخبيرة في أصول التبوّل على حافّة الطريق. نزل من مؤخّرتها سيل بولي ساخن أحدث شقًّا في التراب، ظلّ ينزل وينزل حتى شكّل بركة صغيرة أسفل عمود الإشارة.

**انتهت**

**١٩ نيسان ٢٠١٢**